الفصـــل الأول

قراءة فى الإرهاب الدولى

(١) بين القوة والإرهاب .

(٢) مفهوم الإرهاب والمقاومة ـ رؤية عربية إسلامية .

(٣) التواطؤ الأمريكى فى أحداث ١١ سبتمبر .

(٤) قالوا عن الحرب وأهوالها .

(٥) تدهور المؤسسات التعليمية والثقافية أثناء غزو العراق .

(١) بين القوة والإرهاب

القراءة التى سوف أوجزها هى للأستاذ الجـــامعى والباحـــث الـــسياسى نعـــوم تشومسكى فى كتابه الذى صدر أوائل عام ٢٠٠٣ بعنوان القوة والإرهاب ، يغـــوص ليستجلى غور مصادرهما وبواعثهما ، دون الاكتفاء بأعراضهما من أحداث ووقائع ، وهو يذكرنى فى تشخيصه المتعمـــق بمقولة الإمام على الخليفة الراشـــد ، مفادها أنـــه (لا ينبغى أن يُسأل الجهلاء لم جهلوا قبل أن يُسأل العلماء لِمَ لم يُعلِّمـــوا) وفى هـــذا الكتاب يؤكد مرات ومرات (أننا لا نستطيع أن نعالج قضايا الإرهاب التى يرتكبـــها الضعفاء ضد الأقوياء ؛ إذا لم نواجه ما يتم تجاهله من العنف الرهيب بمختلف صوره لما يمارسه الأقوياء على الضعفاء) . ومن ثم فإن المبادرة بالإرهاب تنطلق من حائزى القوة، وأن الطرف الضعيف يمثل فى محاولاته رد فعل وإرهاباً مضاداً ، وليس العكـــس فيمـــا يجرى عادة من تشخيص على ساحة السياسة الخارجية لدولة كالولايـــات المتحـــدة الأمريكية .

وفى هذا الإطار يضع المؤلف مشهد الأحداث الدامية والمروعة ، التى جـــرت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على أرض الولايات المتحدة لأول مرة فى تاريخها ، كما ينـــاقش سياسات أمريكا فى هذا الصدد قبل الحادث وبعده ، وفى مختلف الدول والقارات .

وتشير بعض بيانات إدارة الأبحاث فى الكونجرس إلى أن مجموع أنواع التدخل التى قامت به الولايات المتحدة عبر تاريخها (١٨٩٨-٢٠٠٣) يتجاوز (٢٠٠) حدث ذى طابع عسكرى مباشر وغير مباشر وتحت مبررات مختلفة ، من أبرزها حرصها على دعم الاستقرار وبناء أنظمة ديمقراطية فى مواطن التدخل ، وفى حسبان المؤلف أن الولايات المتحدة هى (الدولة الرائدة فى ممارسة الإرهـــاب) The Leading Terrorist State .

يظهر ذلك الدور بوضوح فى فترة الحرب الباردة فى معارك توازن القوى مع الاتحـــاد السوفيتى سابقاً ، ويتعاظم بعد انهيار ذلك العدو الأكبر . وبعده يختل التوازن العالمى مع حركة العولمة ولهاث الربح فى السوق الطليقة ، قاعدة للاقتـــصاد العـــالمى ، ونفـــوذ الشركات المتعدية الجنسية ، وتصبح الولايات المتحدة القطب الأوحد فى التأثير والهيمنة على مجريات القرية الكونية . ويصدق تسميتها بالإمبراطورية الأمريكية إذ تمتلك أقوى الأسلحة فى العالم ، ويقترب إنفاقها العسكرى من جملة الإنفاق العسكرى فى بقية دول العالم مجتمعة. هذا إلى جانب ما تمتلكه من مصادر القوة الاقتـــصادية والتكنولوجيـــة والاتصالية والإعلامية .

وخلال استعراضه لأنواع التدخل الأمريكى فى شئون الدول ، التى كانت تسود فيها بعض الاضطرابات التى قد تهدد الأمن الأمريكى ومصالحه فى مواجهـــة الاتحـــاد السوفيتى ، شهدت فترة الثمانينيات قدرًا وافرًا من ذلك التدخل العسكرى المباشر وغير المباشر . ولجأت ضمن ما لجأت إليه خلال الحرب الباردة إلى اصطناع آلية المساعدات والمنح المالية والعسكرية لتلك الدول ، سواء بمعونتها لتغيير نظمهـــا الراهنـــة ، أو فى حالات أخرى لدعم ومساندة نظمها التى توشك أن تتهاوى . وفى جميـــع الأحـــوال كانت تهدف سياسة المعونات إلى استقطاب القيادات المحلية الممالئة لهـــا ، أو تقـــديم السلاح والقوة العسكرية أو التدخل الفعلى لضمان ما سمى بالاستقرار الذى يتيح المناخ الملائم للاستثمارات الأمريكية الجديدة أو الموجودة فعلاً .

ويشير المؤلف إلى أنه منذ عام ١٩٨٠ شهدت السياسة الأمريكية ما أطلق عليـــه (إرهاب الدولة) ؛ حيث أعلن (جورج شولتز) وزير الخارجية الأمريكية إذ ذاك أنـــه (يجب التركيز على وباء الشر الإرهابى الذى ينطلق من أولئك المحرومين مـــن إعـــلاء الحضارة ذاتها فى محاولاتهم العودة إلى عهود البربرية فى العصر الحديث) . ومن ثم قررت إدارة ريجان أن القضاء على الإرهاب يجب أن يتصدى فى المقام الأول إلى كل من دول أمريكا الوسطى ودول الشرق الأوسط .

ولا يتسع المقال لما أشار إليه تشومسكى من نتائج التدخل فى دول أمريكا الوسطى باسم (الحرب ضد الإرهاب) ، ويكفى أن نورد ما ذكره من أن تلك الحروب قد خلفت حوالى (٢٠٠) ألف من القتلى ، وأكثر من مليون من اللاجئين واليتامى والمعاقين .

بيد أننا نرى أن ثمة دلالة واضحة لجبروت القوة فيما ذكره عن الحرب التى اشتعلت لسنوات مع نيكاراجوا ، وفى مساندة أمريكا السافر لعصابات الكونترا ، خشية أن يتهدد نطاق تلك الدولة الشيوعية أمن الولايات المتحدة والاستقرار فى القارة اللاتينية . ومع ضراوة الحرب اضطرت حكومة نيكاراجوا إلى اللجوء إلى محكمة العدل الدولية ، والتى قضت بإدانة الولايات المتحدة (بممارسة الإرهاب الدولى ، واستخدام القوة غير المبررة قانونياً ، وانتهاك المعاهدات ، ودعتها إلى إنهاء ارتكاب الجرائم ، ودفع تعويضات ضخمة) ولم تذعن الدولة المعتدية لهذا القرار ، بل ضاعفت من حدة الحرب، وأعطيت التعليمات لأول مرة بالهجوم على مؤسسات الخدمات الإنسانية . واضطرت نيكاراجوا إلى تقديم شكوى إلى مجلس الأمن ، والذى قضى (بمطالبة جميع الدول بمراعاة القانون الدولى) ، لكن الولايات المتحدة أبطلت القرار باستخدامها حق الفيتو ، ورغم ذلك كله فلم توقف الولايات المتحدة عدوانها .. حتى تمكنت من انتخاب مرشحها لرئاسة الدولة ، بعد حرب طاحنة جعلت نيكاراجوا من أفقر الدول فى العالم. ويختم المؤلف عرضه لهذا الحادث (إن القائد الحالى لمشكلة الحرب ضد الإرهاب – جورج دبليو بوش – إنما يمثل الدولة الوحيدة فى العالم التى أدانتها المحكمة الدولية بممارسة الإرهاب الدولى) .

ويتابع المؤلف مسيرة التدخل الأمريكى تحت دعوى (الحرب ضد الإرهاب) فى كوريا الجنوبية وفى موزمبيق وأنجولا ، امتداداً إلى جنوب إفريقيا حيث دعم وساند حكم الإبارتيد العنصرى فى مواجهة كفاح حزب المؤتمر الوطنى الديمقراطى ، والذى اعتبرت الولايات المتحدة السجين نيلسون مانديلا أحد قيادات كفاحه إذ ذاك (من أخطر الجماعات الإرهابية) .

أما عن الشرق الأوسط ، وهو موقع التركيز الثانى فى الإرهاب الدولى منذ فتـــرة الرئيس ريجان .. فإن أحداثه معروفة للقارئ العربى ، وما تزال مجرياته شاخصة أمامه . يذكر منها المؤلف بطبيعة الحال المساندة الكاملة والشاملة التى تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل ، ومنها المعونة المالية والعسكرية التى تعد من أضخم المعونات لدولة أجنبية ، ويخص بالذكر طائرات الأباتشى التى تنفرد أمريكا بصنعها ، والتى شاركت وتشارك فى التدمير والاغتيال على أرض فلسطين . هذا فضلاً عن دعمها الدبلوماسى على امتـــداد مختلف رؤسائها فى إبطال كل محاولة للمجتمع الدولى فى مجلس الأمـــن وفى الجمعيـــة العمومية للأمم المتحدة ؛ من أجل الوصول إلى حل سلمى للقضية الفلسطينية خـــلال ربع قرن مضى.

ومن آيات دعم الإرهاب فى الشـــرق الأوسط ما جرى قبل ســـنوات أحداث ٩/١١ من المساندة العسكرية للولايات المتحدة فى الهجوم الإسرائيلى على الأراضـــى المصرية عام ١٩٦٧ من خلال دور الغواصة الأمريكية ليبرتى ، ثم غـــزو لبنـــان عـــام ١٩٨٢ بقيادة شارون وما ارتكبه من جرائم الحرب فى إبادة مخيمات صبرا وشـــاتيلا . ويخص بالذكر من الإرهاب الذى تعرض لـــه لبنان حادث السيارة المعبأة بالمتفجرات فى أوائل الثمانينيات والتى وضعت خارج أحد المساجد لتنطلق فى توقيـــت خـــروج المصلين من المسجد ، وتؤدى إلى قتل (٨٠) شخصاً وإصابة أكثر مـــن (٢٥٠) مـــن المصلين والمارة . وقد نسب هذا الحادث إلى تدبير المخابرات الأمريكية والبريطانية مما لم يمار أحد فى صحة هذا الخبر ؛ يضاف إلى ذلك ما حدث فى مارس ١٩٨٥ حين قامت القوات الإسرائيلية فى وزارة شيمون بيريز فيما عرف بعملية القبضة الحديدية لتأديـــب (القرى الإرهابية) فى جنوب لبنان . كذلك لم يسلم السهل التونسى من ضربه بالقنابل من الطائرات الإسرائيلية التى أودت بحياة (٧٥) شخصاً من الفلسطينيين والتونسيين . وغضت الولايات المتحدة الطرف عن هذا العدوان الإرهابى لدولة صديقة مع علمها به مسبقاً ، ومع وجود الأسطول السادس الأمريكى الذى استقر كامناً فى البحر فى تلك

المنطقة . وقد استحقت الغارة تهنئة وزير الخارجية الأمريكى لوزير الخارجية الإسرائيلى، ومع أسفه على ما نجم عنها من ضحايا !!

ثم تقع أخيراً كارثة ٢٠٠١/٩/١١ بكل ما فيها من خراب ودمار للحجر والبشر، ويدين العالم كل ما جرى . ويعبئ الرئيس بوش الاتجاه نحو استئصال شافة الإرهاب الدولى وبخاصة فى دول (محور الشر) وجماعاته الإرهابية وتبرز فيها أصابع الاتهام المباشر نحو أفغانستان وطالبان وإيران والعراق . وتتوالى وقائع الحرب ضد الشر ودوله كما هو معروف بدءاً بإعلان الحرب على أفغانستان، ثم يتجدد هدف القضاء على النظام العراقى بدعوى امتلاكه أسلحة الدمار الشامل وإحلال نظام ديمقراطى محل نظام الطاغية صدام حسين . وقد كانت النية مبيتة لغزوه واحتلاله رغم المعارضة شبه العالمية لهذا الأسلوب ، ورغم تقارير مفتشى الأسلحة ، وبصرف النظر عن موافقة مجلس الأمن . وتم تزييف كثير لحيثيات ومبررات الغزو ؛ لتقود الحملة العسكرية بمفردها مع بريطانيا دون غطاء شرعى أو قانونى .

وفى هذا الصدد يشير المؤلف إلى تناقض موقف الولايات المتحدة فى هذه الحالة مع موقفها من حرب العراق مع إيران خلال الثمانينيات . ويتجاهل الشعب الأمريكى أن دولته إذ ذاك قد شجعت ودعمت صدام حسين ، ولم تدخر وسعاً فى إعانته على تنمية أسلحة الدمار الشامل ، وغضت الطرف عن استخدام الغاز فى تلك الحرب وفى إبادته للتمرد الكردى فى حلبجة . ولا تفسير لهذا التناقض إلا التحديد المنفرد لما تتصوره القوة من إرهاب فى ضوء تغير مواطن مصالحها وتحالفاتها .

ويستخلص المؤلف من عرضه لأحداث التدخل الأمريكى بما يملك من قوة ووسائل وبما يتخذ من ذرائع بمختلف صوره ، إنما هو رد فعل فى مواجهة ما يهدد مصالحها من إرهاب الدول أو الجماعات الإرهابية ، أو أنها تقوم بعمليات استباقية لمنع وقوع الإرهاب الذى تنوى مصادر الشر أن تقوم به .

وهذا يعنى أن غيرها هو الذى يمارس الإرهاب وان تبرير تدخلها يتمثل فى (مواجهة الإرهاب) . ويرى المؤلف من خلال استعراضه التاريخى أنها المصدر الأول

للإرهاب ، وأن ما تقوم به الدول أو الجماعات الأخرى إنما هو (مواجهـــة لإرهـــاب القَوِى وقهر الضعيف واستغلاله ، أو فيما يطلق عليه بأنه (حرب عادلة) .

ويتعرض المؤلف تهمة البعض لـــه بأنه متحيز ومبرر لهجمات الإرهابيين . وأجابته بالعكس ؛ إذ إنه متهم ومهموم بعدم تكرار حوادث الإرهاب على الولايات المتحدة أو على غيرها من الدول . ومن ثم فإنه إذا أريد إيقاف تلاحق الموجات الإرهابية كمـــا يحدث راهنًا ، فلابد لنا من البحث المتعمق عن جذور أسبابها ، لا مجرد أعراضها . وهو يرى أن مصدرها فى الأغلب والأعم إنما هو سطوة القوة وفرض الإذعان والاستـــسلام لصالحها ومواقفها . ومن هنا جاء تذكرى لمقولة الإمام على فى مـــأثورات الكتـــاب ومحاولة تطبيقها على قضـــية الإرهاب ، حيث لا ينبغى أن تُســـأل الدول الفقـــيرة والجماعات المقهورة عما ترتكبه من جرائم الإرهاب ، قبل أن تسأل الدول القوية عما تمارسه من إرهاب أشد وأعنف على الدول الفقيرة والجماعات المضطهدة . ويؤكـــد المؤلف أن محاولته فى تشخيص جذور الإرهاب إنما هى قضية مطروحة فى مجلس الأمن، بل وأخيرًا فى صفحة (وول ستريت جيرنال) المحافظة ومطروحة كذلك منذ أربعين عاماً فى الوثائق السرية غير المنشورة فى البيت الأبيض .

ويختتم استعراضه لدور الولايات المتحدة وتدخلهـــا بالقوة فى فـــرض سياســـتها بالتساؤل : كيف يمكن العمل على إيقاف موجات الإرهاب التى غدت تهدد البـــشرية كلها ؟ وفى رأيه أن هناك طريقاً واحداً يمكنه أن يحد ويقلل كثيراً من مخـــاطر العنـــف والإرهاب ، ويبدأ هذا الطريق بأن تقوم الولايات المتحدة ذاتها بالاســـتجابة المتعمقـــة والصحية لفهم أسباب ما يجرى ، وبالتوقف عن الدعم المادى والعسكرى أو بالمشاركة الفعلية فيما أطلقت عليه (الحرب ضد الإرهاب) .. بيد أنه يرى أن هذا الاقتراح لـــن يجد سبيله إلى أجندة أمريكا المتورمة حالياً بداء القوة والهيمنة .

ومرة أخرى يسند اقتراحه بما أدى إليه ما قدمته الولايات المتحدة من دعم وتزويد بالمال والسلاح فى حرب صدام حسين مع النظام الإيرانى ، ويؤكد أن ذلـــك الـــدعم

الأمريكى والبريطانى هو الذى مكَّن الطاغية صدام من القهر والفتك بـــشعبه ، وهـــو الذى مكنه من تطوير أسلحة الدمار الشامل .

وقد اعتبرته حليفاً وصديقاً لها حين تغاضت عن جرائمه فى استخدامه للأســـلحة المحظورة ، طالما كان يقدم لها الخدمات التى ترعى مصالحها . ولعلنا نتذكر كيف عفت وتسامحت معه عند هجوم قواته على سفينة البحرية الأمريكية فى الخليج والـــتى قتـــل خلاله (٣٥) من طاقمها ، وعندما أصابت إحدى صواريخه بارجة حربيـــة وأدت إلى مقتل (٣٧) من قواتها . وهل يمكن أنه يتصور أحد إمكانية التغاضى عن مثـــل هـــذا العدوان على القوات الأمريكية، لو لم يكن صدام فى مكان الصدارة من أصدقائها ؟ ثم تعود بعد سنوات قليلة حين تغيرت الأوضاع ، لتوجيه الاتهام لصدام على ما ســـاعدته عليـــه فى خدمة مصالحها ، ثم لينتهى الأمر باحتلال العراق ، والبحث عن صدام حيًّا أو ميتاً !!

أما بعـــد :

فينتهى تلخيصى لما ورد فى كتاب تشوفسكى (القوة والإرهاب) ملتزماً بأفكـــاره ووقائعه وتشخيصه قد المستطاع ، وهى فى جميع الأحوال رؤية خاصة تستحق التأمل ، سواء رضى القارئ عنها جميعها أو عن بعضها أو أنكرها غاية الإنكار . وستظل قضية الإرهاب الدولى معنا فى هواجسنا وأفكارنا وتحليلاتنا ومعاناتنا زمناً طويلاً .

(٢) مفهوم الإرهاب والمقاومة
رؤية عربية ـ إسلامية

مقـدمة :

يعد الإرهاب بمفهومه العام ، "الاستخدام غير المشروع للعنف" ظاهرة قديمة جديدة ، لكن الأضواء سلطت عليه فى السنوات الأخيرة ، فى ظل الأزمة الأخلاقية التى يعيشها النظام الدولى ، وفى ظل الانتقائية فى تطبيق قواعد القانون الدولى والشرعية الدولية وتوظيفها سياسياً ، مما تسب بزيادة أعمال العنف فى مناطق مختلفة من العالم .

ورغم الاتفاق الدولى على مفهوم الكفاح المشروع للدول والشعوب ، فإن المجتمع الدولى لم يتمكن من الاتفاق على تعريف واحد ومحدد لمفهوم الإرهاب ، نظراً لاختلاف المعايير بين الدول ، وتباين الرؤى حولها ، فمصطلح العنف واستخدام القوة مفهوم نسبى الدلالة له وظيفته واستخداماته المحددة ، وظروفه وبيئته ، وهو ليس مجرد لفظ يعد بذاته مستحسناً أو مستقبحاً (*).

كما يتوسع بعض الباحثين والخبراء فى مفهوم الإرهاب ليشمل الهجمات ضد الأشخاص وضد الممتلكات ، ويأخذ بعضهم بالحسبان بواعث الفاعلين ، فيفرق بين الهجمات الجنائية والهجمات السياسية . ويخلط بعضهم الآخر بين الإرهاب المحظور والحق فى المقاومة والاستخدام المشروع للقوة لإنهاء الاستعمار والاحتلال وممارسة الحق فى تقرير المصير .

(*) مركز دراسات الشرق الأوسط فى الأردن : أسهم فى صياغتها خمسون مختصاً وخبيراً ، ووقع عليهـــا مئات من الشخصيات العربية من أربعة عشر دولة ، وتم إصدارها لمزيد من التوقيعات فى يوليو / تموز ٢٠٠٣ . ووجدنا أن من المناسب ضمها إلى دراسات هذا الكتاب .

غير أن النصوص والأعراف الدولية والإنسانية وأحكام الشريعة الإسلامية تؤكد التباين بين المقاومة والجهاد من جهة والإرهاب من جهة ثانية ، فى مختلف الجوانب القانونية والسياسية والاجتماعية، وبالوسائل التى تستخدم فى الحالين والهداف المرجوة.

ومع الإقرار العالمى بحق تقرير المصير ، فى مداولات الأمم المتحدة ، وفى الاتفاقيات الدولية المعنية بحقوق الإنسان وعلى رأسها العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية ، والعهد الدولى الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لعام١٩٦٦، وبتحوله من مجرد مبدأ سياسى إلى حق قانونى ، فقد أصبح من المحتم القول بأنه يقع على كل دولة واجب الامتناع عن الإتيان بأى عمل قسرى ، يحرم الشعوب غير المستقلة من حقها فى تقرى مصيرها ، سواء أكانت خاضعة للاحتلال أم للاستعمار .

وقد أسفرت جهود المجتمع الدولى بشأن تحديد مفهوم الإرهاب منذ أن طرح الموضوع أمام عصبة الأمم عام ١٩٣٧ وما تلاها من جهود ، إلى استنتاج أن الاستعمار هو أحد أهم دوافع أعمال المقاومة التى يسميها المستعمرون والمحتلون بالإرهاب ؛ حيث تشير مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة طوال عقد السبعينيات إلى أن من أهم الأسباب الجوهرية لاستخدام العنف استمرار الاستعمار فى السيطرة والهيمنة على الأقاليم التى كانت خاضـــعة له يوماً ما ، وإنكار حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وبهذا تكون الأمم المتحدة قد قدمت فهماً معياريًّا وموضوعيًّا برد الظاهرة إلى دوافعها وأسبابها ، وقد ميزت بين الإرهاب بوصفه جريمة دولية ، والكفاح المسلح بوصفه نشاطاً من أنشطة حركات التحرر الوطنى المشروعة ، وهو بلا شك اختلاف جوهرى فى الطبيعة والمقاصد .

وفى إطار هذا المفهوم عقدت الجمعية العامة ثلاث عشرة اتفاقية دولية، وأسندت فى موقفها هذا العديد من القرارات والتوصيات الصادرة عنها ، ولعل أولها توصيتها رقم (١٥١٤) لسنة ١٩٦٠ الخاصة بمنح البلدان والشعوب المستعمرة استقلالها ، والتى اشتهرت فيما بعد بقرار " تصفية الاستعمار " وكذلك توصيتها رقم (٣١٠٣) لسنة ١٩٧٣ بشأن المبادئ المتعلقة بالمركز القانونى للمقاتلين الذين يكافحون ضد السيطرة الاستعمارية والاحتلال الأجنبى والنظم العنصرية، لا بإضفاء المشروعية على عملهم فحسب، وإنما بشمول هؤلاء المقاتلين أيضاً بقواعد القانون الدولى المعمول به فى

النزاعات المسلحة ، مثل : اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ الخاصة بجرحى الحرب وأسرهم، وحماية المدنيين .

وفى هذا السياق اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة مراراً بحقوق الشعب الفلسطينى غير القابلة للتصرف مثل قرارها رقم (٣٢٣٦) لعام ١٩٧٤ بند (١،٢) ، وقرارها رقم (١٧/٣٩) لعام ١٩٨٤ بند (٣) ، وقرارها رقم ١٤٩/٤٩ لعام ١٩٩٥ فى البند (١،٣) وبحقه فى استرجاع حقوقه بالوسائل المتاحة كافة بما فى ذلك المسلح قرار الجمعية العامة رقم (٣٢٣٦) لعام ١٩٧٤ بند (٥) ، ورقم (١٧/٣٩) لعام ١٩٨٤ بند (٢) ، كما أن القانون الدولى ، ومنذ قيام الأمم المتحدة ، قد حظر اللجوء إلى القوة المسلحة أو التهديد بها فى إطار العلاقات الدولية ، غير أنه أجاز اللجوء إلى القوة بأشكالها المختلفة فى حالات الدفاع الشرعى ضد الاحتلال بوصفها وسيلة لممارسة حق تقرير المصير ، والوصول إلى الاستقلال الوطنى .

وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بمشروعية نضال الشعوب فى سبيل التحرر من الهيمنة الاستعمارية والسيطرة الأجنبية ، بالوسائل كافة ، بما فى ذلك القوة المسلحة ، كما أقرت تقديم دول العالم المساعدات للشعوب التى تناضل فى سبيل تقرير المصير ، وان تساعد جهود الأمم المتحدة فى هذا المضمار ؛ حيث يمكن لهذه الشعوب أن تتمتع بدعم خارجى فى الكفاح المسلح الذى تخوضه ضد دولة استعمارية أو عنصرية أو ضد الاحتلال الأجنبي، دون أن تحتج الأخيرة بأن هذا الدعم يعد من قبيل التدخل فى شؤونها الداخلية، وفق قرار الجمعية العامة رقم (٣٠٧٠) لعام ١٩٧٣ فى البندين الثانى والثالث.

وإزاء هذه الجهود المبذولة من الأمم المتحدة لحصر مفهوم الإرهاب وعدم خلطه بحق المقاومة ومشروعيتها ، كانت الولايات المتحدة غير متعاونة لإنجاح هذه الجهود بسعيها إلى تغييب المعايير وإحلال الانتقائية محلها ؛ لكى تنفرد بعد ذلك فى تصنيف أعمال العنف وفق ما تشاء ، وقد تصاعد اتجاه توسيع مفهوم الإرهاب لديها ليشمل أعمال المقاومة والجهاد والكفاح المسلح المشروعة ، ولاسيما بعد توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ ، إثر انعقاد مؤتمر شرم الشيخ عام ١٩٩٦ وضغط أمريكا بهدف إدانة أعمال المقاومة المسلحة الفلسطينية تحت اسم " الإرهاب " .

وقد أحدثت تداعيات الهجوم على نيويورك وواشنطن ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ هزة فى النظرية الأمنية الأمريكية السائدة ؛ الأمر الذى شجع الإدارة الأمريكية على تغيير سلوكها الدبلوماسى بلجوئها إلى لغة العنف والتهديد والحصار العسكرى والاقتصادى للآخرين ، وإعلان تقسيم العالم إلى معسكرين: " إما مع أمريكا أو مع الإرهاب"، حيث صبت جام غضبها وقوتها على العرب والمسلمين دولاً وحركات وأفراداً، على خلفية اتهامها أفراداً عرباً ومسلمين بالوقوف وراء هذا الهجوم .

وقد استغل اللوبى الصهيونى بنفوذه العالمى والسياسى والاقتصادى هذه الحادثة لتشجيع التطرف اليمينى فى الإدارة الأمريكية ، وتحريض العالم الغربى ضد كل ما هو عربى وإسلامى .

وفى ظل هذه الظروف المستجدة ، ظهرت الحاجة إلى إعادة تأكيد المفاهيم الإنسانية السليمة للمقاومة والكفاح والجهاد ، والحفاظ عليها حقوقاً إنسانية ثابتة ، والمحافظة على شرعيتها وضمان المساندة الدولية لها ، وفصلها تماماً عن أى أعمال يمكن أن توصف بالإرهاب والوحشية ، وهو ما تحاول هذه الوثيقة التأكيد عليه ، بالاستناد إلى العمق الحضارى والصالة الفكرية والتطلع المستقبلى للأمة العربية والإسلامية التى يؤكد تاريخها على أنها أمة تكافح الإرهاب وترد العدوان وتدفع الظلم. ولذلك فإن إقحام مصطلح الإرهاب على الإسلام والمسلمين والعرب ، إنما ينطوى على ظلم بين للقيم العربية الإسلامية الأصيلة ، ويتسبب فى إيجاد مغالطات خطيرة تجاه نضال الشعوب العربية والإسلامية من أجل التحرر من الاحتلال الأجنبى واستعادة حقوقها المشروعة .

أولاً : الديباجة :

- رغبة فى تشكيل رؤية عربية إسلامية لمفهوم الإرهاب ، وتمييزه عن مفهوم المقاومة المشروعة ، وإسهاماً من مثقفى الأمة فى صياغة مفهوم دولى للإرهاب ، وحرصاً منا على المحافظة على التفاعل الحضارى بين الأمم .
- والتزاماً بالمبادئ الدينية والأخلاقية السامية التى تمثلها قيمنا الحضارية العريقة التى تدعو إلى حماية حقوق الإنسان التى نصت عليها مبادئ القانون الدولى وأسسه .
- وتأكيداً على حق الشعوب فى مقاومة الاحتلال الأجنبى والتصدى للعدوان ، وتحرير الأرض ، وتقرير المصير ، ونيل الاستقلال بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك الكفاح المسلح.

- وتماشياً مع النظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية - التى تأسست فى تموز / يوليو ٢٠٠٢ - الذى ألزم جميع الدول بالامتناع عن استعمال القوة أو التهديد باستعمالها ضد الســـلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسى لأى دولة على أى نحو لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة .

أعدت هذه الوثيقة للتفريق بين الإرهاب من جهة ، وأعمال المقاومة المشروعة والكفاح المسلح من جهة ثانية، ولتحول دون اتخاذ الاتهام بالإرهاب ذريعة لانتهاك حقوق الإنسان، وسيادة الدول، والتدخل فى شؤونها الداخلية .

ثانياً : متن الوثيقة :

مفهوم الإرهاب :

الإرهاب : هو استخدام غير مشروع للعنف أو تهديد باستخدامه ببواعث غير مشروعة ، يهدف أساساً إلى بث الرعب بين الناس ، ويعرض حياة الأبرياء للخطر ، سواء أقامت به الدولة أم مجموعة أم فرد ؛ لتحقيق مصالح غير مشروعة ، وهو بذلك يختلف كلياً عن حالات اللجوء إلى القوة المسلحة فى إطار المقاومة الشرعية .

وهو بهذا انتهاك للقواعد الأساسية للسلوك الإنسانى ، ومناف للشرائع السماوية والشرعية الدولية لما فيه من تجاوز على حقوق الإنسان .

وتشير ظاهرة انتشار الإرهاب فى العالم إلى أزمة فكرية تعيشها المجتمعات المختلفة، التى ترتبط بفلسفة العنف فى تحقيق أهدافها ، ويعبر تفشى أعمال العنف على الصعيد الدولى عن إشكالية سياسية تتعلق بطبيعة العلاقات الدولية المستندة إلى تحكم الدول القوية عسكرياً فى مصالح الدول الأضعف .

الجهاد والمقاومة :

يطلق لفظ الجهاد فى النصوص الإسلامية بمعناه العام على مقاومة العدو أو مجاهدة النفس أو الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر ، وقد اصطلح الفقهاء على أن الجهاد بمعناه الخاص هو " بذل الوسع والطاقة فى القتال فى سبيل الله بالنفس والمال واللسان بهدف نصرة الإسلام والمسلمين"؛ أى قتال من قاتل المسلمين وأخرجهم من ديارهم، أو

القتال لأجل ردع المعتدين ودفع عدوان واقع ، أو لإخراج المعتدين من أرض المسلمين ، أو القتال دفاعاً عن النفس والمال والعرض ؛ حيث يعد كل ذلك جهاداً (فى سبيل الله). وبذلك فإن مقاومة الاحتلال الأجنبى ودفع ظلمه ، وعدوانه عن الأنفس والممتلكات والأعراض يعد جهاداً (فى سبيل الله).

وقد حرمت الشريعة الإسلامية العدوان فى الجهاد مثل قتل من لا يجوز قتله من النساء والأطفال وكبار السن ورجال الدين المنقطعين للعبادة ، وسائر المدنيين غير المقاتلين ممن لا يخدمون تحت السلاح لدى المعتدين ، كما حرمت تجاوز الحد المشروع فى القتل ، أو القتال لأجل الفساد فى الأرض ، أو نهب خيرات الشعوب ، أو تخريب زروعها وثمارها وأشجارها.

وفى الوقت الذى تقرر فيه الشريعة الإسلامية حق المقاومة المشروعة وفق ما ورد أعلاه ، فإن التراث الفكرى الغربى ذاته قد أسس لحق مقاومة الطغيان ، ورفع شعارات الحرية والعدالة والمساواة التى نادى بها روسو وفولتير وغيرهم من الفلاسفة فى أوروبا قبل قرون عدة ، كما أن المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة والمادة (٢) من الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب ، ووفقاً لما قرره القانون الدولى وفقهاؤه ، ووفقاً للحق الطبيعى فى الدفاع عن النفس والمال والأملاك والأعراض والحريات ، فإن من حق الشعوب التى تتعرض للاحتلال والاستعمار والعدوان والطغيان المسنودة بالقوة ، اللجوء إلى المقاومة المسلحة بوصفها مقاومة مشروعة ، وفى هذه الحالة تنطبق اتفاقيات الحماية الدوليـــة المختلفة على المقاتلين من أجـــل الحرية ضـــد الاستعمار والاحتلال أو الاضطهاد ، وبذلك تتمتع الفئـــات التى تمارس هذا الحق فى المقاومة المشروعة بمركز قانونى معتبر ، حسب هذه الاتفاقيات ، بما يتيح لها التصدى للاستعمار والاحتلال .

وقد أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى قرارها رقم (٣٢٤٦) الصادر فى١٤/ ١٢/١٩٧٤ على شرعية حق الشعوب فى الكفاح المسلح فى سبيل تحررها ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هى مخالفة لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادئ القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول ، وللإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، " وقد أكدت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة فى عام

١٩٩٨ فى المادة الثانية على أنه لا تعد جريمة حالات الكفاح بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك الكفاح المسلح ضد الاحتلال الأجنبى، والعدوان من أجل التحرر وتقرير المصير".

وبناء على ما تقدم فإن المقاومة هى : استخدام مشروع لكل الوسائل بما فيها القوة المسلحة لدرء العدوان ، وإزالة الاحتلال والاستعمار ، وتحقيق الاستقلال ، ورفع الظلم المسنود بالقوة المسلحة ، بوصفها أهدافاً سياسية مشروعة ، وهو ما يتفق مع القانون الدولى وتؤيده الشريعة الإسلامية .

وتستند مشروعية المقاومة إلى مجموعة من المبادئ القانونية الثابتة ، كحق المقاومة استناداً لعدم الولاء والطاعة لسلطة الاحتلال ، واستناداً إلى حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والدفاع عن النفس ، والاستناد إلى قرارات الأمم المتحدة ، والاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية المدنيين أثناء الحروب .

ومن ذلك يتبين أن المقاومة عمل مشروع لتحقيق مصالح الشعوب التى تتعرض للعدوان والاحتلال ، فيما الإرهاب يمثل اعتداء على حق هذه الشعوب فى الحياة والحرية وتقرير المصير .

مقاومة الإرهاب الإسرائيلى

وفيما يتعلق بدولة الاحتلال فى فلسطين ، فإن قيامها كان على حساب شعب آخر وهى الطرف المعتدى على الشعب الفلسطينى والمحتلة لأرضه ، وما تستخدمه من وسائل التعذيب والاعتقالات الجماعية والقتل وارتكاب المجازر وقتل الأطفال وهدم البيوت ومصادرة الأراضى وتجريفها ، وما تمارسه من البطش والظلم والتهجير والنفى بحق الشعب الفلسطينى هو الإرهاب بعينه ؛ لأنه يعد جريمة فى عرف الدول كلها وفق ميثاق الأمم المتحدة ، ومناف لكل القيم الإنسانية فضلاً عن مخالفته للشريعة الإسلامية، ولهذا فإن أعمال المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى هى مقاومة مشروعة ، وهى لا تختلف عن مقاومة ديغول وتشرشـــل للإرهاب النازى فى أوربا ، أو المقاومة الأمريكية للاحتلال الإنجليزى لأراضيها قبل قرون ، أو مقاومة الشعوب الأخرى للاستعمار والاحتلال الأجنبى لتحقيق الاستقلال وتقرير المصير .

توصـــيات :

ترى هذه الوثيقة أن الحد من ظاهرة الإرهاب ودعم المقاومة المشـــروعة يتطلب ما يلى:

١ – السعى لوضع مفهوم متفق عليه للإرهاب ، وتمييزه عن المقاومة المشروعة ، وتعد هذه الوثيقة مساهمة فى هذا المضمار .

٢ – المبادرة السريعة والجادة إلى تعزيز التفريق بين الممارسات الإرهابية التى تقوم بها إسرائيل وغيرها من الدول ، وأعمال المقاومة المشروعة التى تقوم بها حركات التحرير الوطنية لتحقيق أهدافها فى تقرير المصير والاستقلال ؛ حتى لا تختلط المفاهيم كما هو الحال فى فلسطين وغيرها .

٣ – تمكين الشعوب الواقعة تحت الاحتلال أو الاستعمار من تحقيق استقلالها ونيل حقها فى تقرير المصير ؛ حتى لا يكون ذلك ذريعة لأعمال عنف يختلف الناس فى تسميتها بالإرهاب أو المقاومة المشروعة .

٤ – تفعيل التعاون الدولى المنظم على أساس العدل والمساواة ورعاية المصالح المشتركة دون هيمنة أو انتقائية ، وتفعيل القانون الدولى فيما يتعلق بحماية حق الشعوب فى نيل استقلالها وتقرير مصيرها .

٥ – السعى لتوفير الحماية الكافية للمدنيين فى الحروب ، بما فى ذلك تأمين إيصال المساعدات الطبية والإنسانية للمحتاجين منهم .

٦ – مواجهة إرهاب الدولة والحد من تفاقمه بالعمل على بلورة موقف دولى موحد ضد الدول التى تمارسه وبخاصة إسرائيل ، والعمل على عزل هذه الدول حتى تتوقف عن ممارسة الإرهاب ورعايته .

٧ – التوقف عن التهديد بالقوة العسكرية والعقوبات الاقتصادية ضد الدول الضعيفة ، واستغلال مواردها من جانب الدول الأقوى بصورة استعمارية ، والعمل بدلا من ذلك على تشجيع إقامة علاقات التعاون والسلم الدوليين .

٨ – توسيع دوائر الحوار الثقافى والحضارى بين العالم العربى والإسلامى من جهة ، والعالم الغربى من جهة أخرى ؛ لتقليل الحاجة إلى اللجوء إلى القوة والعنف فى أى خلافات بين الجانبين .

(٣) التواطؤ الأمريكى فى أحداث ١١ سبتمبر

أهدانى صديق دراسة مستفيضة بعنوان هذا المقال لأستاذ فى إحدى الجامعات الأمريكية، هو الدكتور ولتر إى ديفيز بتاريخ ٤ إبريل ٢٠٠٣، ومسجلة على موقعه فى شبكة الإنترنت. ويفتتح الأستاذ دراسته بالسؤال: (لماذا لم يكن مستطاعًا الحيلولة دون وقوع الهجوم الذى حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟) ويتابع القول بأن (هناك جوانب كثيرة تتعلق بالحكايات الرسمية المتعارضة التى لا تتطابق مع الحقائق المعروفة، والتى تطالبنا بأن نتنكر للفهم العام السليم، كما أنها تتضمن نمطاً من التغطية وتزييف المعلومات المرتبطـــة بواقع ما جرى فعلاً) . وفى هذا المقال يقول كاتبه (لقد حـــددت (٢٠) مسألة من جوانب ذلك الحدث ووقائعه فى صورة حقائق وأسئلة، يدعونا أى واحد منها إلى البحث والتمحيص والتساؤل).

وتشير جميع تلك الوقائع، التى لم تكشف عنها وسائل الإعلام الكبرى، إلى أن أكثر التفسيرات مصداقية للأحداث التى أحاطت بهجوم ١١ سبتمبر تكمن فى أن (إدارة بوش كانت متواطئة فى تعاملها مع ذلك الهجوم الإرهابي) كما أن من بين تلك الأسباب ذات الدلالة البينة (يعود إلى أن ذلك الهجوم قد تم توظيفه من قِبَل إدارة بوش ليكون ذريعة ومبررًا لشن حرب لا تنقطع أبدًا على العالم، وفرض إجراءات صارمة من الكبت والقمع فى الداخل). هكذا يبدأ المقال تساؤله، ويقدم الإجابة عنه ومبينا من خلال (٢٠)من الشواهد والحيثيات ما يثبت صحة تلك الإجابة التى تؤكد (تواطؤ إدارة بوش) فى عدم منع حدوث ما حدث.

وفيما يلى إيجاز لتلك الشواهد والحيثيات :

(١) لقد كانت جميع أجهزة المخابرات فى الولايات المتحدة الأمريكية على علم مسبق بأن هجوماً سيقع على الأرض الأمريكية، وأن طائرات تجارية سوف تستخدم

فيه كقنابل، كذلك كانت على علم بالتوقيت التقريبى وبالأهداف المتوقعة. وقد تواترت المعلومات والتحذيرات من احتمالات وقوعه منذ عام ١٩٩٧ من دول مثل روسيا وفرنسا وإسرائيل والفلبين ومصر، ومن قبل المخابرات الغربية، ثم أنه قبل الهجوم بأسبوعين أكد بعض أعضاء المخابرات المنتشرين فى الميدان بمختلف مناطق الشرق الأوسط وأوربا بقرب وقوع الهجوم فى أى لحظة، وقدمت أسماء مائة من أعضاء القاعدة المشتبه فيهم للقيام بهذا الهجوم . لكن وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالية أوقفت التحقيقات فى هذا الشأن، وهددت خبراء الميدان بالمحاكمة بأنهم إذا ما أذاعوا أى معلومات عن الهجوم المتوقع قريباً فسوف يحاكمون تحت طائلة قانون الأمن القومي. وها نحن اليوم نجد أن بعض خبراء الميدان يقاضون الوكالة المركزية من أجل أن تسمح لهم بالحرية فى تقديم شهادتهم إلى الرأى العام.

(٢) هناك دليل لا يرقى إليه الشك فى أن قوات الطيران الحربى الأمريكى فى طول البلاد وعرضها كانت قابعة تماماً فى مرابضها صبيحة يوم ١١سبتمبر. أضف إلى هذا أن إجراءات الأمن الروتينى التى تقوم بها تلك القوات فوق مواقعها قد أوقفت لمدة ساعة ، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه أحداث الهجوم . وقد كان من الممكن للروتين اليومى لتلك الطائرات أن يبادر فى الحيلولة دون حدوث ذلك التأثير المدمر أو على الأقل يخفف من حدته، لكن شيئا من ذلك لم يحدث .

وفيما يلى التوقيت الذى تم فيه تتابع الأحداث فى ذلك الهجوم الإرهابى :

- فى الساعة ٨,٤٦ صباحاً ارتطمت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة رقم (١١) القادمة من (بوسطن) بالبرج الشمالى لمركز التجارة العالمى.
- وفى الساعة ٩,٠٣ ارتطمت طائرة الخطوط الجوية المتحدة رحلة رقم (١٧٥) والقادمة من (بوسطن) بالبرج الجنوبى للمركز.
- وفى الساعة ٩,٤٠ ضربت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة رقم (٧٧) والقادمة من (دالاس) فى جنوب أمريكا مبنى البنتاجون (وزارة الدفاع).

- وفى الساعة ١٠،١٠ تحطمت طائرة الخطوط الجوية المتحدة رحلة رقم (٩٣) والقادمة من مطار (نيويورك) فى شانكفيل بولاية بنسلفينيا.

ويلاحظ الكاتب أن مطار أندروز وهو قاعدة ضخمة للطيران الحربى ، يرابض على أرضها سربان من الطائرات النفاثة المقاتلة، وفى حالة استعداد تام دائما، ومنوط بها حماية سماء أجواء واشنطون ، ولا يبعد هذا المطار الحربى عن موقع البنتاجون بأكثر من (١٠) عشر أميال. لكنها فشلت فى أداء مهمتها على الرغم من مرور أكثر من ساعة منذ معرفتها ببدء الغارة الأولى (الساعة ٨,٤٦ على البرج الشمالى لمركز التجارة العالمي، وبين تحطم الطائرة رقم (٩٣) فى الساعة ١٠،١٠)؛ حيث لم تتحرك أية طائرة من سربى أندروز لحماية المدينة . هـــذا على الرغم من أن الطيران الحربى له صلاحية كاملة، دون إذن من البيت الأبيض، فى اعتراض أى طائرة تجارية فى أحوال الطوارئ. ومع هذا فإن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وتفصيل ذلك التجاهل ما نجده فى حالة طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رحلة رقم (١١) التى أقلعت من مطار بوسطن لوجان فى الساعة ٧,٤٥ ؛ حيث كان آخر اتصال روتينى بينها وبين برج المراقبة الأرضية فى الساعة ٨,١٣ وفى الفترة من ٨,١٣، ٨,٢٠ انقطع الاتصال بينها وبين برج المراقبة ، كما أشار الرادار إلى أن الطائرة قد انحرفت عن مسارها المحدد . أضف إلى ذلك أن اثنين من مضيفى تلك الطائرة قد قاما بالإبلاغ عن اختطافها ، وعن استخدام الخاطفين لأسلحتهم فى الاعتداء على الطاقم والركاب. وهكذا أصبح من الواضح تماما أن الطائرة رحلة رقم (١١) فى حالة طوارئ.

ولكن توقيت المطار الرسمى كان يشير إلى أنه لم يتم الاتصال به إلا متأخرًا عن ذلك أى بعد (٢٠) عشرين دقيقة فى الساعة ٨,٤٠. ويبلغ الحال صورته المأسوية حين نعلم بأن الطائرات المقاتلة لم تغادر المطار إلا فى الساعة ٨,٥٢ أى بعد (٣٢) دقيقة من انقطاع الصلة بهذه الطائرة أى فى الساعة ٨,٢٠ وهكذا تحركت الطائرات بعد أن كان البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى قد تحطم فعلا. ومع ذلك فإنه لم يتم اعتراض الطائرات التجارية الأخرى رقم (١٧٥)، التى حطمت البرج الجنوبى للمركز التجارى

العالي، وبعد (١٧) دقيقة من تحركها . وكذلك الشأن فى الطائرتين رقم (٧٧) التى ضربت البنتاجون، ورقم (٩٣) التى تحطمت فى بنسلفانيا.

ويوجه الباحث التفاتنا إلى نمط التأخير فى الإبلاغ عما يجرى وفى قيام الطائرات النفاثة المقاتلة من مطارها الحربى فى أندروز. وتثير حالة الطائرة التى ضربت البنتاجون رقم ٧٧ دهشة مذهلة ، إذا كان من المعروف أن هذه الطائرة القادمة من (دالاس) فى جنوبى الولايات المتحدة قد تعرضت لمشكلة أثناء طيرانها، لكنها استطاعت أن تغير خط سيرها، وأن تتجه نحو واشنطون فى رحلة استغرقت (٤٥) دقيقة، مارة فوق البيت الأبيض، لترتطم بالبنتاجون. وخلال ذلك كله لم تتم أى محاولة للتعرض لها من أى سرب من الأسراب المقاتلة ، التى كانت رابضة كما سبقت الإشارة على بعد عشر أميال من المصير النهائى لتكل الطائرة وارتطامها بالبنتاجون. ويعلق الكاتب على ذلك النمط من التأخير فى تحرك الطائرات وفشلها فى الاعتراض بقوله (إن هذا السيناريو غير ممكن مهما شطح الخيال إلا إذا أقر المرء بأن ثمة مؤامرة، حتى لو لم يحدث أى شيء أخر خلال ذلك اليوم).

(٣) لم يُعْنَ رئيس هيئة الأركان المشترك، أو وزير الدفاع، أو رئيس الولايات المتحدة بالتصدى لأحداث الهجوم بما ينبغى أن تواجه به من الإجراءات البروتوكولية المعروفة فى حالات الطوارئ. وعلى سبيل المثال .. فإن نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة (الجنرال ريتشارد مايرز) صرح بعد الحادث بأنه رأى فى أخبار التلفزيون أنه (استمع إلى تقرير عن طائرة ارتطمت بمبنى مركز التجارة العالمي، وحوالى الساعة ٨,٤٦، (وظن أنها طائرة صغيرة أو شيء من هذه القبيل). ولذلك استمر يواصل الاجتماع الذى كان يرأسه. بيد أنه بمجرد أنه أنهى اجتماعه علم بأن طائرة أخرى قد ضربت البنتاجون ويتساءل الباحث معلقاً (مسئولية من إبلاغ هذا الحدث الطارئ إلى رئيس هيئة الأركان؟!).

أما وزير الدفاع فقد كان فى مكتبه يتعامل مع بعض الأوراق ، عندما ارتطمت طائرة الخطوط الجوية الأمريكية رقم ٧٧ الساعة ٩,٤٠ بمبنى البنتاجون. ويتساءل الأستاذ

الجامعي(كيف يمكن أن نتصور أن المركز الوطني للقيادة الحربية الموجود فى مبنى البنتاجون نفسه ، والذى على اتصال بمواقع المراقبة لم يقم بإبلاغ وزير الدفاع فى البنتاجون منذ الساعة ٨,٤٦ بنبأ الطائرات المهاجمة، وبخاصة تلك المتجهة نحو واشنطون من مطار دالاس؟!. ثم لماذا توجه الوزير بعد سماعه بالأنباء إلى غرفة الحرب؟!)

وفيما يتعلق بموقف الرئيس بوش، فإن استجابته لما كان يجرى تدل على أنه تجنب عامدًا اتخاذ أى إجراء ، يتوقع من رئيس حريص على حماية المواطنين والممتلكات فى بلاده. وقد كان الرئيس بوش أثناء تلك الهجمات فى زيارة لمدرسة (سارسوتا) الابتدائية واستمر فى زيارته ؛ إذ لم يبلغه الحرس السرى بالنبأ، وهو المنوط بإبلاغه عن كل شيء، إلا بعد ١٩ دقيقة من الهجوم الأول، أى بعد دقيقتين من الهجوم الثانى على مركز التجارة العالمي، حين همس رئيس الحرس (أندرو كارد) فى أذنه بما جرى. لكن الرئيس لم يظهر أى اهتمام ملحوظ كما كان متوقعا إذا ما أراد أن يتخذ أى إجراء فى هذا الموقف .. لقد كان منتظرًا منه أن يغادر المدرسة ليعقد اجتماعاً طارئًا ، أو أن يتشاور مع أحد، أو يقوم بأى تدخل ليتأكد من أن قوات الطيران الحربى قد قامت بواجبها. لكنه لم يفعل شيئا من هذا، و واستمر فى استكمال درس القراءة بالمدرسة، كأن أمرًا خطيرًا لم يحدث!!.

ويعلق الباحث موضحًا بأنه فى حالات الطوارئ التى تمس أمن البلاد .. فإن التردد ولو لثوان قد يكلف هلاك آلاف الأرواح من البشر. ومن أجل ذلك تتخذ الحكومة شبكة متكاملة ضخمة من المخبرين والعلماء والمستشارين والأجهزة لضمان أن يحاط الرؤساء أول لا أخر من يحاط بتلك الأحداث الخطيرة الطارئة. ويخلص من ذلك إلى أن وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية والرئيس وكل الشخصيات القيادية المحيطة به فى البيت الأبيض، تتحمل المسئولية فى عدم فعل أى شيء فى مواجهة كل تلك الأحداث ، التى تبين أن ثم تهديدًا داهمًا للأمن القومي. ويطرح الباحث سؤال:هل هذا ناتج عن ضعف فى القدرات والإمكانات؟ ويقرر الباحث (إنى أعتقد أنه ليس كذلك).

(٤) كان على أجهزة المخابرات الأمريكية قبل ٩/١١ أن تمنع (١٩) إرهابيا من الدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأسباب مخابراتية بحتة، ومن بينهم (١٢) شخصًا ، كان لا بد من رفض إعطائهم سمات دخول ؛ إذ إن طلبات السمة التى تقدموا بها جاءت بياناتها غير صحيحة وغير كاملة . وقد جرت العادة إثارة التشكك فى طلبات الدخول لمن لا تشير بياناتهم إلى البلد أو المكان الذى يقصدونه أو إلى الهدف المحدد من مجيئهم. كذلك تعترض صعوبات عديدة منح سمة الدخول للشباب الذكور وغير المتزوجين وأولئك الذين ليس لهم مهنة أو عمل محدد. ثم إن عددًا من الخاطفين قد استنفد مدة إقامته الشرعية ، وليس لديه مبررات تستوجب بقاءه على الأرض الأمريكية .. ففى حالة (محمد عطا) الذى يقال إنه قائد مجموعة الخاطفين تشير المعلومات المتاحة عنه أنه كان مراقبًا من مكتب التحقيقات الفيدرالية منذ عام ٢٠٠٠، ولكنه استطاع الدخول مرة ثالثة عام ٢٠٠١ بسمة سياحية .

(٥) يدور الدليل الخامس حول الكيفية التى استطاع بها كثير من أولئك الخاطفين الحصول على تصريح للتدريب على الطيران فى الأجواء الأمريكية دون التحقيق من أغراض هذا التدريب ودوافعه. والواقع أن معظم هذه المجموعة قد بدأت تدريبها الأوَّلى فى مطارين بمدينة فينس بولاية فلوريدا ، وهما مطاران تحوم حولها الشبهات فى مصداقيتهما، ومع ذلك تم تدريبهم بموافقة المخابرات الأمريكية. وأورد الباحث أسماء عدد من الخاطفين والمطارات المختلفة التى التحقوا بها فيما بعد ، فى ولايات الاباما وتكساس وكاليفورنيا. ومع صحة هذه المعلومات الموثقة، نجد أنه بعد ثلاثة أيام من هجوم ٩/١١ يعلن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية ، روبرت ميولر أنها معلومات لم يكن للمكتب علم بها وهى جميعها جديدة بالنسبة له .

(٦) ثم يتساءل الباحث عن الكيفية التى حصل بها الخاطفون على المواد المحظورة مثل آلة تمزيق الصناديق، وبخاخة الفلفل، والبندقية صغيرة الحجم، والتى تمكنوا من اصطحابها على متن الطائرة. ومما يثير الاستغراب أنه فى صبيحة ٩/١١، عندما تسلمت المجموعة الإرهابية المكونة من (١٩) فردًا، بطاقات صعود الطائرة ، تم توقيف (٩)

منهم وإعادة تفتيشهم تفتيشًا كثيفا، لكنهم جميعًا سمح لهم فى النهاية بمتابعة مهمتهم على متن الطائرة .

وفى هذه الحيثيات الست أراد الأستاذ الجامعى أن يدلل على ما وقر فى فكره، وما تجمع لديه من قرائن حول تواطؤ الإدارة الأمريكية وقياداتها فى أحداث ٩/١١. وفى المقال الثانى سوف نتابع بقية الحيثيات التى أوردها صاحب هذا البحث. وقد حرصنا أشد الحرص على أن يكون تلخيصنا لكل ما أورده من قرائن، وأن نترجم مضامينها الرئيسـية ترجمة دقيقة – أو قل حرفيًّا – فى بعض الحـالات ، واضـعين ما اقتبسناه بين هلالين لتكون أكثر وضوحا من وضعها بين علامات التنصيص المعتادة.

(٧) فى الفترة التى كانت أجهزة المخابرات قد تنبهت إلى احتمال قيام أفراد من القاعدة بهجوم فى داخل الولايات المتحدة، قامت إدارة بوش الأمريكية قبل أربعة اشهر من تاريخ ٩/١١ بالاتفاق على برنامج أطلق عليه (الفيزا السريعة) لتسهيل دخول السعوديين إلى الولايات المتحدة. وقد أعلن (مايك سبرنجمان) رئيس قسم القنصلية الأمريكية فى جدة ورود ضغوط متكررة عليه من موظفى وزارة الخارجية فى واشنطون لإصدار سمات دخول لأشخاص غير مؤهلين للحصول عليها. بيد أن شكواه من هذا الاستثناءات لم تجد لها أى صدى. وقد أشار فى إحدى المقابلات التى أجرتها معه محطة (س . بى . س) بعد وقوع الهجوم بـأن وكالة المخابرات المركزية كانت متواطئة فى الهجوم على حدث ٩/١١.

(٨) لقد كان معظم الخاطفين من السعوديين، كما هى جنسية أسامة بن لادن، وقد تجمعت حولهم معلومات مخابراتية تدل على أن بعض الهيئات السعودية تقدم دعمًا ماليًّا للمنظمات الإرهابية. ويعقب على الباحث ذلك بأنه ما دام هدف الولايات المتحدة مكافحة الإرهاب، فلماذا تتجه عمليات الاستعداد للحرب إلى العراق، بدلاً من ملاحقة بن لادن حيث يوجد هو وجماعته.

(٩) يثار السؤال حول ما الذى أدى بمكتب التحقيقات الفيدرالى إلى إيقاف تحقيقاته فى ١٠ أكتوبر ٢٠٠١ فى قضية بن لادن ومسئوليته فى أحداث ٩/١١، أى

بعد شهر من البدء بها؟ والحاصل إن ذلك المكتب قد اشتكى مراراً من التضييق والاختناق لدى محاولاته التحقيق فى اتهامات بن لادن وتنظيم القاعدة. ويعزى إلى أحد المسئولين عن المسائل القانونية قوله إلى أن الهيئة المكلفة بالتحقيق (قد أوحى لها بأن تفهم بأننا لسنا الآن فى محاولة لحل جريمة من الجرائم) .

(١٠) لقد جرى اتهام أسامة بن لادن من قبل بعض المسئولين بصفة غير رسمية بارتكاب ذلك العمل الإرهابى بعد يوم واحد من حدوثه ؛ أى بعد فترة زمنية قصيرة جدًّا ، لم يسمح مداها بإجراء أى تحقيقات تثبت ذلك الاتهام. والباحث يرى أن مثل هذا الاتهام أمرًا مستحيلاً إذا لم يكن لدى الإدارة معلومات مسبقة بذلك. وهل يعقل ألا يكون لديها أى تحذير فى عملية من هذا النوع ؛ مما يصعب على أجهزة المخابرات الأمريكية أن تغيب عنها؟ وحتى لو تسرب لديها معلومات غير محدودة عن الهجوم، فإن أسئلة كثيرة يمكن أن تثار فى عدم الاحتياط والاستعداد لمواجهتها. ويؤكد الباحث أنه ليس من المنطقي، بل وواقعيا غير مستحيل، أن يحدث ذلك الهجوم إذا لم يكن بن لادن مشاركًا بالتآمر فيه، أو فى أحسن الحالات بأن الحكومة الأمريكية كانت على علم بما سيفعله، تاركة إياه عمداً وقصداً أن يفعله) .

ومن ناحية أخرى .. فإنه نتيجة لمعرفة الهجوم الأول الذى حدث فى الساعة ٨,٤٦ تم إخلاء البيت الأبيض فى الساعة ٩,٤٥ خشية الهجوم عليه ؛ مما يعنى أن إبلاغ خبر الهجوم قد جرى قبل ذلك. وإذا كانت صيحات الناس التى تعالت فى الشارع تهتف بضرورة الإمساك بأسامة بن لادن فى الساعة ٩,٣٥، فهذا يعنى أن الخبر قد أذيع فى الساعة ٩,٢٥ . أيضاً أن المحققين فى الحادث قد أجروا مهمتهم فى ٩,١٥ أى بعد (١٢) دقيقة من ضرب الطائرة الثانية للبرج الجنوبى من مبنى مركز التجارة العالمى الذى وقع فى الساعة ٩,٠٣ ، وهذا يعنى أيضاً أن التحقيقات قد تمت بإدانة بن لادن قبل أن تنتهى الهجمات على البنتاجون فى الساعة ٩,٤٠ وتحطم الطائرة الثالثة فى بنسلفينيا فى الساعة ١٠,١٠ .

ومع هذا التتابع الذى يبدو مؤسفا يشير الباحث إلى أن الأهم من ذلك أنه (بعد أربع ساعات من بدء الهجمات قامت الإدارة بتحريك حملة دعائية مخططة سلفاً بمعونة

رسائل الإعلام المطيعة وغير الناقدة للزج باسم بن لادن وإدانته فى عقول الشعب الأمريكي) والواقع أنه منذ اليوم الأول للهجوم الإرهابى لم يظهر أى خيط من خيوط الأدلة التى تدين بن لادن . وحتى منتصف ديسمبر لم يكن هناك إلا ترديد متواصل لاسمه فحسب، وأن الاتهامات الرسمية التى ظهرت كانت مدعاة للازدراء والإشفاق.

ويتجلى ذلك فيما أعلنه من البيـــان الرسمى الذى تضمن (٩٦) نقطة تفصـــل الأسباب التى أدت إلى توجيه الاتهام ، منها (١٠) نقاط تشير إلى العلاقة بين بن لادن وحكومة طالبان فى أفغانستان، ومنها (١٥) نقطة تبين العلاقة بين بن لادن والفلسفة العامة لتنظيم القاعدة الإرهابي. وهناك (٢٦) نقطة تحدد اتهامات ترتبط بمحاولات إرهابية سابقة (نيروبى..) بينما لا يعرض هذا البيان أى حقائق عن هجوم سبتمبر. وفى هذه الحملات الدعائية استخدمت وزارة الدفاع بعد أربع ساعات جزءاً من حوار نسب إلى بن لادن فى محاولة لإدانته، لكنها لم تقم بإذاعة الحوار كله، ولم تقدم ترجمة حرفية لـــه باللغـــة الإنجليزية. ويتساءل الباحث (لماذا كان من الضـــرورى الاجتراء بالكذب من أجل خلق حالة اتهام لأسامة بن لادن .. لكن الحقيقة هى التى توجه الاتهام لإدارة بوش؟).

(١١) من حيثيات التواطؤ ما هو معروف من تلك العلاقات المتشابكة بين وكالة الاستخبارات الباكستانية، وتنظيم القاعدة، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ثم بين الوكالة الباكستانية وأسامة بن لادن ومحور طالبان. هناك ما تقدمه باكستان من دعم للقاعدة، ثم أن وكالة الاستخبارات الباكستانية ظلت الآلية التى من خلالها تزود وكالة الاستخبارات المركزية دعمها غير المباشر للقاعدة. وقد استخدمت الحكومات الأمريكية المتعاقبة الوكالة الباكستانية كوسيط فى هذا الدعم لكل من القاعدة وطالبان وأسامة بن لادن . ومن ثم فإنه دون هذا الدعم المؤسسى للوسيط الباكستانى ، لم يكن ممكنا أن تقوم حكومة طالبان فى كابول. وفى المقابل فإنه دون الدعم المستمر لحكومة الولايات المتحدة ، فإنه لن يكون هناك جهاز قوى للاستخبارات الباكستانية.

ومن ثم فإن وكالة الاستخبارات الباكستانية تعتبر بطريقة غير مباشرة مرتبطة بأحداث سبتمبر. وقد أشارت بعض التقارير إلى أن المدير العام لتلك الوكالة (الجنرال

محمود أحمد) قد قام بتزويد رئيس مجموعة الخاطفين للطائرات التى قامت بالهجوم ١١ سبتمبر بما قيمته مائة ألف من الدولارات قبيل هجوم ٩/١١ . وعندما تم اكتشاف ذلك بعد الهجوم أرادت الحكومة الأمريكية أن تحميه وتحمى نفسها فدعت الجنرال للاستقالة من منصبه ، وبذلك أغلقت الطريق لأى محاولة للتحقيق وفيما يمكن أن ينجم عنها من ظهور كثير من الفضائح. ومن ثم فإن دعوة الحكومة الأمريكية لوكالة المخابرات الباكستانية للتعاون معها بعد أحداث ٩/١١ باعتبارها الداعمة والمحرضة لكل من بن لادن وطالبان، فضلاً عن مشاوراتها مع الجنرال قبل ذلك الهجوم بأسبوع، تثير قضية آيات التغطية والتمويه والتواطؤ فى تلك الأحداث.

(١٢) أن الحكومة الأمريكية وبن لادن ليسا عدوين كما يدعيان، فالتعاون بينهما له تاريخ طويل، وهناك من الشواهد ما يدل على أن هذه العلاقة ما تزال قائمة. ومع أن هناك عديدًا من الحيثيات فى بعض المواقف التى تشير إلى أن بن لادن له ضلع فى أحداث ٩/١١ .. لكن المشكلة تكمن فى أنها توجه الاتهام كذلك للإدارة الأمريكية ولوكالة المخابرات المركزية، ولجورج بوش الأب، ولباكستان، ولبعض الدول العربية.

لذلك مما لا يرقى إليه أى شك ولا ينكره أى أحد ما كان قائماً من علاقات عمل بين بن لادن ووكالة المخابرات المركزية أثناء حقبة الثمانينيات. بيد أن الادعاء بأن هذه العلاقة قد انهارت منذ ذلك التاريخ إنما يمثل قصة كاذبة. ومما هو ثابت أيضا وجود علاقة وثيقة بين كبار الأعضاء فى إدارة بوش وبين أفراد عائلة بن لادن. وفيما تعرضه وسائل الإعلام من حكايات عن هذه العلاقات يتم تبريرها وتحريرها على أنها علاقة مقبولة ؛ لأن العائلة قد تبرأت من عميدها بن لادن نتيجة الأنشطة الإرهابية التى ينظمها ضد الولايات الأمريكية. (وهذا كذلك من الأكاذيب ؛ إذ إن هناك شواهد كثيرة تؤكد أن وكالة المخابرات المركزية لم تقطع علاقاتها بشبكة الإسلاميين المتطرفين. ثم أنه منذ نهاية الحرب الباردة لم تقتصر المخابرات السرية فى العلاقات على ما كانت عليه آنذاك، بل إنها تزداد تدريجيا تعقيدًا ودهاء) .

(١٣) لماذا لم يقبض على بن لادن قبل أحداث الهجوم فى ٩/١١، ولماذا لم يتم القبض عليه حتى الآن؟ سؤال مطروح لدى كثير من هيئات المجتمع الأمريكي، حيث كانت هناك فرص متعددة للقيام بذلك، ويبدو أنَّه لم يبذل جهد حقيقى فى هذا الشأن، وهناك بعض الدول العربية التى تتعاون فى أن يظل حرًا طليقًا. والواقع أنَّه كانت تتم لقاءات بينه وبين أعضاء وكالة المخابرات المركزية خلال الفترة الأخيرة قبل الهجوم حتى شهر يوليو٢٠٠١، وأن فحصا لمحاولة الولايات المتحدة القبض عليه تظهـــر بجلاء ما كان يعطل استمرارها ويؤدى إلى توقفها بين الحين و الأخر. ويشار فى هذا الصدد إلى أن (١١) فرداً من عائلة بن لادن قد أتيح لهم أن يستقلوا الطائرة من مطار بواشنطن [وهو المطار الذى بدأت منه طائرتان للمختطفين التوجه إلى أهدافها] ليرحلوا إلى الخارج، بعد أيام قليلة من عملية الهجوم. ويبقى السؤال لماذا لم يتم احتجازهم والتحقيق معهم لعلهم ، يبدوان بما يوضح شيئا ذا دلالة فى دوافع وتخطيط ذلك الهجوم الإرهابى ؟

(١٤) إن إيجاد ذريعة لشن الحروب كما تجلى فى التواطؤ حيال أحداث ٩/١١ سوف يؤدى إلى اكتساب مزيد من القوة العارمة والأرباح الفاحشة نتيجة للعلاقات الاقتصادية بين أسامة بن لادن وكبار المسئولين فى إدارة بوش. ومن الثابت أن ثمة مشروعات تعاونية بين عائلة أسامة بن لادن وعائلة بوش ، من خلال الشركة الكبرى المعروفة باسم (مجموعة كارلايل) وهى من أكبر الشركات العالمية فى مقاولات السلاح . ومما هو وارد فى سجلات تلك الشركة استقطابها للرئيس الأسبق جورج بوش الأب كعضو رئيسى فى معاملاتها الممتدة زمناً طويلاً مع عائلة بن لادن. وقد جنت هذه الشركة العملاقة أرباحاً طائلة من اشتعال الحرب فى أفغانستان وفى العراق، فضلاً عن أرباحها فيما أسماه الباحث (دورها فى عسكرة السياسة الخارجية الأمريكية).

(١٥) لقد تكشف عن الأرباح المتولدة من هجوم ١١ سبتمبر فى داخل السوق الأمريكية ما يشير بأصابعه إلى مغانم المستويات العليا من رجال الأعمال ووكالة المخابرات المركزية. وقد دأبت أجهزة المخابرات على إجراء تحليل دورى للمعاملات المالية لكل نشاط مريب يدعو إلى الشك .

وفى هذا الصدد تبين قبل ثلاثة أيام من الهجمات خلال التعامل فى السوق المالى للبورصة بأن أسهم شركة خطوط الطيران المتحدة، وهى الشركة التى تم اختطاف طائرتيها للهجوم على نيويورك وواشنطون، قد تم بيعها بأسعار متدنية إلى أقصى الحدود إلى جماعات المستثمرين، وقد كان من أكبر المستفيدين من ذلك مدير المخابرات المركزية (كرونجارد) أما أسماء المستثمرين الآخرين فما تزال فى طى الكتمان، وهناك ما قيمته ٥ ملايين دولار من الأرباح لم يطالب بها أحد، وما تزال فى حساب سوق التعامل فى شيكاغو. ثم إنَّه فى اليوم السابق للهجوم مباشرة لم تجر أية معاملات فى أسهم أى شركة من شركات الطيران فى سوق الأوراق المالية نفسها فى شيكاغو.

كذلك شهد ذلك السوق نشاطاً غير عادى قبيل الهجوم بأيام بالنسبة للشركات التى تشغل مكاتب فى مركز التجارة العالمي، ومن بين هذه الشركات الكبرى شركة (مورجان ستانلى دين ويتر) وشركة (ميرل لينش). ولا شك فى أن هذا النشاط الضخم غير المسبوق يشير إلى أن المستثمرين فى تلك المعاملات كانت لديهم توقعات بأن كارثة ستحدث فى منتصف سبتمبر، تتصل بالخطوط الجوية الأمريكية وخطوط طيران الشركة المتحدة، والمكاتب فى الجناحين الجنوبى والشمالى لمركز التجارة العالمي. ومنذ تلك الأيام التى سبقت الهجوم، كما يقرر الباحث، (أطبقت لجنة الأوراق المالية وأسعار العملة شفاهها على نتائج بحوثها المالية، مع أن كشف ذلك المستور سوف يبين لنا أولئك المستثمرين الذين انتهزوا تلك الفرصة) ويتساءل الباحث (لماذا لم يتم الإعلان عن أى شيء فى هذا الموضوع حتى الآن؟!) .

(١٦) لقد تم إبلاغ عدد من الشخصيات بعدم التفكير فى السفر بالطائرة صبيحة يوم ٩/١١. كذلك أفادت مجلة نيوزويك بأنه فى يوم ٩/١٠ أى قبل الهجوم بيوم واحد بأن مجموعة من كبار موظفى البنتاجون .. قامت فجأة بإلغاء خطة سفرها المقررة بالطائرة فى ذلك اليوم، وكان من الواضح أن مرد ذلك إلى اعتبارات أمنية. ومن هذا القبيل تلك المكالمة الهاتفية التى تلقاها عمدة سان فرنسيسكو (ويلى براون) قبل سفره بثمان ساعات من الهجوم، محذرة إياه من السفر بالطائرة. وجرى ذلك فى حالة

(سلمان رشدى)، المحاط بحماية سكوتلانديارد على مدى ٢٤ ساعة، حين منع من السفر بالطائرة. ويقال فى بحوث أخرى إن مئات من اليهود العاملين فى مركز التجارة العالمية لم يذهبوا إلى مكاتبهم فى ذلك اليوم ، وهنا يتساءل الباحث أيضاً (لماذا لم تقدم تلك التحذيرات نفسها إلى أولئك المسافرين على متن الطائرات التجارية المختطفة، مما أدى إلى مقتل ٢٦٦ شخصاً من ركابها؟)

(١٧) هناك سند معقول للشكوك التى تثار حول أن الهجوم على أفغانستان كان مخططاً قبل ٩/١١. ولما كان من الضرورى وجود مسوغ يبرر الحرب، فإن ما كشف عنه الصحفى (باتريك مارتن) من أن (الحرب ضد أفغانستان كان مخططاً لبدئها فى أكتوبر ٢٠٠١ منذ سنة على الأقل، وهى فى السياق العام للاستراتيجية الأمريكية (مرتبطة بالاستراتيجية الإقليمية للمصالح الاقتصادية للولايات المتحدة، وهو توجه يستمد جذوره من تخطيط استراتيجى أقدم وأشمل يمتد إلى أربع سنوات سابقة.. وهذا التخطيط بدوره نتيجة لجهود استغرقت عقداً من الزمان فى التخطيط الاستراتيجى الإقليمي، وكل ما كانت تتطلبه هذه الخطط وجود المبرر للضغط على زناد الحرب، والذى قد وجد تجسيده فى الأحداث المأسوية بتاريخ ٩/١١).

(١٨) لقد جرت أحداث الهجوم فى وقت مناسب تماماً لإدارة بوش، والبنتاجون، ووكالة المخابرات المركزية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، وصناعة الأسلحة، وصناعة النفط ؛ إذ استفادت كلها استفادة كبرى من هذه المأساة.

ويتذكر الباحث فى محاولة الإجابة عن المستفيد، مقولة الفيلسوف الاجتماعى الكندى إذ يرى (أن علينا أن نبدأ فى هذا الشأن بالقاعدة القانونية التى تطرح السؤال "من أكثر المنتفعين من ارتكاب الجريمة"؟ والإجابة تشير هنا بوضوح فى اتجاه إدارة بوش، والواقع أنّه كلما ازدادت معرفتنا بالتشابكات والتجاوزات الكاسحة للشروط الأمنية فى مختلف الهيئات المعنية بها، ازدادت المؤشرات التى تشير بأن المستفيدين هم قيادات الإدارة الأمريكية).

(١٩) ومما لا ينبغى إغفاله أن كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى سابقاً، مسئول عن ظهور التطرف الدينى والإرهاب والحرب الأهلية فى أفغانستان منذ الثمانينيات . وتقع المسئولية المباشرة على الولايات المتحدة بسبب تنميتها لأيديولوجية مشوهة فى معنى الجهاد، والتى أشعلت - بفعل ما قدمته من سلاح وتدريب - نيران الحرب والإرهاب داخل أفغانستان بعد انسحاب القوات السوفييتية.

(٢٠) وأخيراً ينبغى التذكير بأن هناك سوابق لهذا التواطؤ "والفبركة" فى المعلومات والوقائع. وهذا رغم الادعاء بأن وجود دولة ما يجرى التآمر عليها من قبل مواطنيها وبخاصة من قيادات إدارتها، أمر لا يخضع للعقل أو التصديق. لكننا فى الوقت ذاته علينا أن نتذكر أن الهجمات الإرهابية على المواطنين من قبل وكالة المخابرات المركزية مسألة مسطورة فى الوثائق العامة. ومن هذا القبيل وثيقة (عملية نورثودز) التى كشفت، بعد أن أزيح عنها طابع السرية، أنَّه فى عام ١٩٦٢ خططت وكالة المخابرات المركزية للقيام بهجمات إرهابية ضد مواطنيها من أجل أن تتهم كوبا بذلك مما يبرر شن الحرب عليها. وإذا كانت تلك الخطط لم يتم تنفيذها .. فإنه جرى اعتمادها والموافقة عليها من قبل جميع رؤساء الأركان فى القوات المشتركة. وكان من بين خياراتها اغتيال عدد من الكوبيين الهاربين إلى أمريكا، أو قتل عدد من الجنود الأمريكيين، أو إغراق بعض السفن، أو إجراء محاكاة بإسقاط طائرات.

إن زلزال ٩/١١ له سوابق من حيث الخديعة فى سياسة الولايات المتحدة، وإن كان الأول من نوعه فى هجوم خارجى على أرضها. (ومرد ذلك إلى أن التواطؤ والخداع فى أحداث سبتمبر مبنى على تقليد مهيب كئيب يعود إلى أيام الإمبراطورية الرومانية. ولقد جرى خداع الديمقراطية فى أمريكا على يد الرئيس روزفلت فى تفجير الأسطول الأمريكى فى (بيرل هاربور ، والذى يُعتقد أن الرئيس كان على علم مسبق به) ولم يسع إلى الحيلولة دونه حتى يكون ذريعة لاستمرار الحرب فى الشرق الأقصى وعلى اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية.

وختاماً، يؤكد لنا الأستاذ الجامعى أنَّه من حقنا أن نستنتج ما نشاء مما أورده من أدلة، تصديقاً أو شكاً أو إنكاراً. لكنه مع ذلك يؤكد أنَّه لو أن كثيرًا من هيئات الحكومة الأمريكية قد قامت بمسئولياتها وأدوارها المنوطة بها، لكان من الميسور منع حدوث مأساة سبتمبر. ويضيف إلى ذلك قوله بأنه لو تم إجراء تحقيق جاد فى تلك الأحداث .. فإنه كان من المستطاع تفادى الحرب فى أفغانستان والعراق.

ولا يسعنا فى هذا الصدد أن نحول دون ما يقفز إلى الذاكرة من تداع للأحداث، متذكرين تلك الحقائق المرتبطة بمبررات الحرب على العراق من اتهام النظام العراقى بامتلاك أسلحة الدمار الشامل التى يمكن أن يطلقها بعد ٤٥ ثانية من مواجهته لأى حرب. ونسترجع كذلك أكذوبة تلك الحاويات التى عرضها وزير الخارجية الأمريكى مدللاً بها تنقل الأسلحة المحظورة، هذا فضلاً عن أسطورة تلك الكعكة الصفراء من مادة البلوتونتوم النووية التى اشترتها العراق من النيجر ، والتى أوردها الرئيس بوش فى خطابه الشهير (حالة الأمة) مما ثبت بطلانها ، وعَرّضته وعرضت أجهزة مخابراته للنقد الشديد فى داخل أمريكا وخارجها.

ومع ذلك ما يزال البحث جارياً عن أسلحة الدمار الشامل والتى أعلن بلكس رئيس مفتشى وكالة الطاقة الذرية فى العراق أخيراً أنها قد دمرت منذ عشر سنوات. ورغم ذلك فإن وزير الخارجية الأمريكى يعتقد بوجودها، ويأمل مع الوقت أن يتم العثور عليها ، عندما يجرى التنقيب عنها تحت سطح الأرض.

ويختتم الأستاذ الأمريكى بحثه باقتباس من كتاب أمريكى ، يعالج الأسباب التى أدت إلى الهجوم على أمريكا فى ٩/١١ إذ يقول مؤلفه (إن الإدارة الأمريكية فى شنها للحرب قد تنكرت للدستور، وأن الكونجرس قد تنازل عن سلطته فى اتخاذ قرارات الحرب فيما لا يقل عن مائتين من المناسبات منذ عام ١٩٤٥، حسبما ورد فى تقرير لاتحاد العلماء الأمريكيين).

ويتابع فى خاتمته اقتباساً من مؤلف أمريكى آخر يقرر استنكاره لما تقوم به الولايات المتحدة فى سياستها الخارجية، إذ تصرخ عباراته بأنه (ليس هناك مجتمع يرضى، إذا ما علم تماماً، بأنه مسئول عن قتل ما بين ١٢ إلى ١٥ مليون من البشر منذ الحرب العالمية الثانية، وبأنه متسبب كذلك فى موت مئات الملايين من السكان من جراء انهيار اقتصاديات بلادهم ... إننا نتحدث بملء أفواهنا عن السلام والحرية والعدل والحقوق وحكم الأغلبية، وفى طول العالم وعرضه، تقوم عمليات الإرهاب التى تساندها بعض الحكومات لتطيح بالأنظمة الديمقراطية، ولتحل محلها حكومات دكتاتورية تحول دون السلام والحرية والعدل والحقوق وحكم الأغلبية .. إن كل أجهزة المخابرات كانت تعمل وما تزال من أجل زعزعة الدول غير النامية ؛ لضمان تبعيتها واستمرار تدفق موارد ثرواتها الطبيعية إلى الدول القوية).

أما بعـــد . .

لقد اقتصرت من جانبى على عملية التلخيص لما ورد فى دراسة ذلك الأستاذ الجامعى الأمريكي، وأحببت أن أعرضها إلى جانب ما قد بدأ يظهر من كتب وتقارير حول أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ . وشأنى فى ذلك شأن صاحب الدراسة فيما يتعلق بموقف القارئ واستنتاجاته من مجمل الحيثيات والأدلة التى ساقها ، وفى جميع الأحوال أنها دراسة تستحق التأمل من أجل الحقيقة والتاريخ .

(٤) قالوا عن الحرب وأهوالها وتداعياتها

مقولات عامة :

تثير أنباء الحرب خليطاً من المشاعر الإنسانية المتناقضة والمتلاطمة حسب سياقاتها بين المعتدى والمعتدى عليه ، بين الذئب والحمل ، بين الظالم والمظلوم ، بين المحتلين للأرض وأصحابها الشرعيين ، بين الساعيين إلى الهيمنة على موارد الشعوب ، وأولئك الذين يعيشون على خيراتها .

وبين هؤلاء وهؤلاء تختلط المشاعر فى الحرب بين آيات المجد والنصر والكبرياء من طرف ، وآيات الفناء والرعب والفداء والاستشهاد والدم المسفوك من الطرف الآخر .

والواقع أنه من الصعب أن تحيط الكلمات بعمق مختلف المشاعر التى تضطرب بها ساحات الحرب وما تشيعه من أهوال ومصائب ، سواء خلال ما يجرى أثناءها من معارك أو ما يترتب عليها من تداعيات الدمار والخراب والعار وفيما يلى سوف نورد بعض تلك المقولات والرؤى التاريخية التى اقتطفناها من شبكة الإنترنت ، والتى حاول أصحابها أن يعبروا عن تلك المشاعر التى تنطلق من آله الحرب وأهوالها ومقاصدها ، ومنها :

- (هناك كثير من الشباب اليوم ينظرون إلى الحرب على أنها المجد كله ، لكننى أقول لكم أيها الشباب ، إنها الجحيم كله ، وعليكم أن تحملوا إنذار صوتى إلى الأجيال القادمة. إننى أنظر إلى الحرب على أنها الهول والرعب كله) [من خطاب وليم شرمان ، أحد جنرالات الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٨٠] .
- (كل الحروب تبدو مقبولة خلال أيامها الثلاثين الأولى فحسب) (مقولة للمؤرخ الأمريكى ، أرثرشسينجر ، عام ١٩١٧) .

- (ليست الحرب إلا استمراراً لمجريات السياسة مع خليط من الوسائل الأخرى) (الجنرال البروسى كارل مارى فون كلاوشفتس ، عام ١٨٣٣) .

- (لعله مما يحمد للحرب أنها رهيبة إلى أقصى الحدود ، ولولا ذلك لأصبحنا مولعين بها) (عبارة قالها الجنرال الأمريكى روبرت لى إلى جنرال آخر فى أعقاب إحدى معارك الحرب الأهلية الأمريكية ، عام ١٨٨٢) .

- (لقد أدخل التلفزيون ما تحمله الحرب من مشاهد وحشية إلى حجرة الاستقبال فى المنزل. لقد جرت الهزيمة فى حرب فيتنام من داخل حجرات الاستقبال الأمريكية، وليس فى ساحات القتال فى فيتنام) (عالم الاجتماع الكندى مارشال مكلوهن عام ١٩٧٥) .

- (إن الحرب التى تعتبر أمراً لا مناص منه أو حتى أنها أمر ممكن ، ومن ثم يتم الإعداد لها ، تنبئ بأن هناك احتمالاً كبيراً فى وقوعها) (الدبلوماسى والمفكر الأمريكى جورج كنان عام ١٩٧٧) .

- (الحرب هى الرأسمالية وقد خلعت قفازها) (الكاتب الروائى البريطانى توم ستوبارد عام ١٩٧٤) .

- (إنه إذا ما لم يتم إنجاز أى فعل فى هذا العالم حتى يستعد الناس لتنفيذه عن طريق أن يقتل بعضهم بعضاً) (الكاتب الإيرلندى الساخر المشهور برناردشو عام ١٩١٥) .

- (إنك لا تستطيع أن تكسب حرباً ، كما أنك لا تستطيع أن تنتصر على زلزال) (قانونية أمريكية جينت برانكن ، عام ١٩٧٠) .

- (إن العصابات المتمردة تقوم بحرب البراغيث ، بينما يعانى عدوها المسلح من قرصها كما تفعل الكلاب. هناك الكثير مما يمكن الدفاع عنه ، لكن العصابات قليلة العدد، تتواجد فى كل مكان ، وهى عدو سريع الحركة من الصعب أن تمسك به) (للكاتب روبرت تابر ، مؤلف كتاب "حرب البراغيث" عام ١٩٦٥) .

- (الدم وحدة هو المحرك لعجلة التاريخ) (زعيم الفاشيه ، الإيطالى بنيتو موسوليني ، ١٩٤٠) .

مجاملة الأمم المتحدة لخطاب الحرب !!

وما أن انتهينا من ترجمة تلك الأقوال عن الحرب ومخاطرها وأهوالهـــا حـــتى يفاجئنـــا الإنترنت بأمر عجيب فى صدد استعداد مبنى الأمم المتحدة لخطاب كولن باول الذى ألقاه فى ٥ فبراير الحالي. وخلاصة الانحياز والمجاملة أنه توجد فى مدخل مجلس الأمن منـــذ منتـــصف الثمانينات نسخة من لوحة الفنان العظيم بيكاسو معروفة باسم جورينيكا Guerenica. وقد رسم بيكاسو هذه الصورة تجسيداً لذكرى جريمة انهيار القنابل الألمانية الإيطالية التى دكـــت إحدى مدن الباسك الإسبانية ، وأبادت حوالى (٥٠٠٠) من سكانها فى أبريل عـــام ١٩٣٧ أثناء الحرب الأهلية الإسبانية ، أيام حكم الدكتاتور فرانكو.

وتعتبر اللوحة الأصلية من بين أروع اللوحات فى مجال الفن الحديث. لكن يبـــدو أن مضمونها الذى تصرخ رموزه بأهوال ما تحدثه الحرب من جرائم الطغاة، قـــد بـــدأ لموظفى الأمم المتحدة أنه غير ملائم لمناسبته إلقاء كولن باول لخطابه عـــن مـــبررات الضربة العسكرية للعراق. لذلك رأوا أنه من قبيل الديبلوماسية يصبح من غير اللائـــق وضع الصورة فى خلفية قاعة مجلس الأمن فى هذه المناسبة. ومن ثم قـــاموا بتغطيتـــها بستارة زرقاء اللون ؛ حتى لا يحدث ذلك التناقض والتصادم بين ما يقوله بـــأول عـــن الحرب مع العراق ، وما تحكيه هذه الصورة التى تمثل أعنف صور الاحتجاج فى القرن العشرين ضد وحشية الحرب ، وفى أروع تمثيل حزين لها بالألوان : الأسود والرمادى والأبيض بريشة بيكاسو العظيم .

ومن غرائب الأحداث إن هذه اللوحة التى انتهى بها المطاف إلى أحد متاحف الولايات المتحدة ، التى قد استخدمت أثناء الحـــرب العالمية الثانيـــة لجمـــع التبرعـــات لمـــساعدة المتضررين من الحرب الأهلية الإســـبانية . كذلك دخلت اللوحة فى غمـــار التناقـــضات السياسية فى حـــرب فيتنام ؛ إذ طالب إذ ذاك (٤٠٠) من الفنانين بإعادة اللوحة إلى بيكاسو حتى تضـــع الحرب أوزارها . وها هى اللوحة التى أهداها نلسون روكفلر للأمم المتحدة عام ١٩٨٥ رمزاً لوحشية الحروب ، توظف لأغراض سياسية . ومِنْ مَنْ ؟ من موظفى الأمـــم

المتحدة التى أنشئت منذ عام ١٩٤٥ لتدعم وتحافظ على السلام والأمن فى ربوع هذا الكوكب . ولا عجب أن يتساءل المرء فى أى عالم نعيش ؟ ويبدو أننا نعيش اليوم فى عالم الولايات المتحدة ، التى غدت الأمم المتحدة من صنائعها وسدنتها !!

موقف المثقفين الأمريكيين :

بتاريخ ٢٠٠٣/٣/٢٥ أصدر هذا الإعلان ووقع عليه أكثر من ٥٥ ألفاً من الأمريكيين من المفكرين وأساتذة الجامعات وأعضاء الكونجرس فى الولايات والعلماء ورجال الدين والأطباء والمحامين ورجال المال والاقتصاد ، ومنظمات حقوق الإنسان والهيئات النسائية والأدبية ، ومختلف الأعراق والديانات . وفى هذا الإعلان ، يؤكدون بوحى من ضمائرهم ضرورة التصدى بالاحتجاج والفعل للحرب غير الشرعية وغير الأخلاقية وغير المبررة التى تقوم بها الحكومة الأمريكية لغزو العراق ، وعلى تداعياتها فى داخل المجتمع الأمريكى ، وفى العالم أجمع .

وإليكم نص هذا الإعلان الذى كانت تسميته ما تصدر هذا المقال :

حتى لا يقال إن شعب الولايات المتحدة لم يحرك ساكناً، عندما أعلنت حكومته حرباً لا حدود لها ، وأسست إجراءات فاحشة جديدة للقهر .. فإن الموقعين على هذا الإعلان يناشدون شعب الولايات المتحدة العمل على التصدى للنهج والتوجهات فيما تسير فيه سياستها العامة منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والتى تمثل مخاطر جسيمة لشعوب العالم .

إننا نعتقد أن لكل الشعوب والأمم الحق فى تقرير مصيرها ، متحرراً من الضغوط العسكرية للدول الكبرى ، ونعتقد أن كل الأشخاص الذين تعتقلهم أو تضطدهم حكومة الولايات المتحدة ينبغى أن يتاح لهم التعامل من خلال الإجراءات القانونية المتبعة لمقاضاتهم . كذلك نعتقد بأن التساؤل والنقد والاختلاف فى الرأى قيم جديرة بالتقدير والحماية ، وندرك أن مثل هذه القيم والحقوق تظل دائماً موضعاً للنضال يستحق أن يدافع عنها .

ونعتقد أننا كشعب يحركه الضمير .. علينا أن نتحمل المسئولية إزاء ما تقوم به حكوماته ، ومن ثم فعلينا أولاً وقبل كل شيء أن نعارض انتهاك صور العدالة التى تتم

باسمنا. لذلك ندعو جميع الأمريكيين إلى مقاومة القهر والحرب التى تشيعها إدارة بوش فى هذا العالم دون مسئولية . إن هذه الحرب غير عادلة وغير أخلاقية وغير شـــرعية ، وقد اخترنا أن ننضم إلى الصالح المشترك مع شعوب العالم .

لقد شهدنا كذلك الأحداث المفجعة التى هزت كياننا فى ١١ ســـبتمبر ٢٠٠١، وتملكنا الحزن لما أصاب آلاف الضحايا الأبرياء ، واضطربت عقولنا من مشاهد تلـــك المذبحة البشرية . وحتى فى ذلك الحين تذكرنا المشاهد المماثلة فى بغداد ، وبنما ســـتى ، ومعها مشاهد عقد مضى فى فيتنام . وبذلك شاركنا ملايين الأمريكيين فى تـــساؤلهم المكروب عن السبب الذى يؤدى إلى مثل هذه الوقائع .

وما أن أخذ شعورنا يتصاعد بالحزن لأحداث سبتمبر ، إلا وتفاجئنـــا القيـــادات العليا لوطننا بإطلاق إعلانها مفعماً بروح الانتقام . وصاغت لتلك الروح شعاراً ساذجاً مفاده " مع الخير وضد الشر " ، والتقطته وسائل الإعلام بالأسلوب الملائم والمهـــدد . وقد بعثت لنا تلك الوسائل برسالة فحواها أن مجرد التساؤل عن مبررات ما تقوم بـــه القيادات إنما يقع فى دائرة الخيانة ، وأنه ليس هناك مجال للرأى والرأى الآخر فى هـــذا الشأن لأن القضية فى جوهرها لا تحتمل أى تساؤلات سياسية أو أخلاقية . وإذا كان لها من إجابة فهى أنه سوف تكون حرباً فى الخارج وكبتاً فى الداخل .

وباسمنا فرضت الحكومة جملة من مظاهر العنف فى المجتمع ، ومنها تحذير المتحدث باسم الرئيس بأن " على الناس أن يراقبوا ماذا يقولون " كذلك يجـــرى تـــشويه آراء المخالفين من الفنانين والمثقفين وأساتذة الجامعات ، ويتم الهجوم عليها وعدم نشرها . ثم إن ما يسمى بقانون المواطنة (باتريوت أكت) وغيره من عديد الإجراءات المماثلـــة على مستوى الولاية ، تمنح الشرطة صلاحيات جديدة هائلة للتفتيش والقبض ، تشرف عليها إذا كان ثمة إشراف وتتعامل معها محاكم سرية وإجراءات سرية .

وباسمنا اغتصبت السلطة التنفيذية أدوار ووظائف الفروع الأخرى للحكومـــة . ومن خلال الأوامر التنفيذية تعقد المحاكم العسكرية ، التى لا تعبأ كـــثيراً بالتـــدقيق فى الشواهد والقرائن ، وأحكامها غير قابلة للاستئناف فى المحاكم العادية . وهكذا تـــدان جماعات بأنها (إرهابية) بمجرد جرة قلم من الرئاسة .

علينا أن نأخذ بجدية ما يتحدث به كبار رجال الدولة، عندما يشيرون فى الخارج إلى حرب قد تمتد عقداً من الزمان ، وفى الداخل عندما يعلنون عن قيام نظام جديد .. إننا نواجه بصراحة نظاماً إمبريالياً جديداً فى التعامل مع العالم ، كما نواجه سياسة داخلية تصنع وتزيف عوامل لإثارة الخوف وتقلص الحقوق .

إن أحداث الأشهر القليلة الماضية فى مسارها المميت تفرض علينا أن نفهمها على حقيقتها كما هى ، وأن نتصدى لمقاومتها . وتدلنا دروس التاريخ على أن أولئك الذين ينتظرون وقوع الأحداث يشعرون بعدها أنهم تأخروا كثيراً فى مواجهتها .

لقد أعلن الرئيس بوش بأنكم " إما أن تكونوا معنا أو تكونوا ضدنا " . ومن ثم فإن جوابنا أننا لن ندعك أيها السيد الرئيس تتحدث باسم جميع أفراد الشعب الأمريكى . ولن نتنازل عن حقنا فى التساؤل ، ولن تستسلم ضمائرنا فى مقابل وعد أجوف بالسلامة ، ونقول (ليس باسمنا) لأننا نرفض أن نكون فريقاً مع دعاة الحروب، كما نرفض أى تفكير يوحى بأن الحرب تدار باسمنا، أو بحجة رعاية مصالحنا . إننا نمد أيدينا إلى أولئك الذين يعانون من هذه السياسات فى أرجاء العالم ، وسوف نعلن تضامننا معهم بالكلمة وبالفعل .

نحن الموقعين على هذا الإعلان ندعو الأمريكيين جميعاً إلى الانضمام معنا لنقف فى وجه هذا التحدث . وإننا نحيى وندعم التساؤل والاحتجاج الذى يجرى فى العالم اليوم، مع إدراكنا بالحاجة إلى أكثر من ذلك بكثير لإيقاف هذه المأساة . وإننا نستلهم فى هذا الصدد ، موقف أولئك الجنود الإسرائيليين الذين رفضوا الانضمام إلى آلة الحرب ضد الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع ما يمكن أن يعرضهم لمخاطر شخصية ، وكان نداؤهم " لابد أن يكون لهذا حدود " .

التداعيات الأسطورية لأحداث ١١ سبتمبر

فى مقدورنا أن نقدم تفسيرات عقلانية لما نشهده ونعايشه من أحداث حياتنا اليومية ، سواء جرت على مشاكلها وأنماطها المألوفة ، أو تعرضت لبعض التغير أو التطور

المتوقع حسب تقديراتنا أو توقعاتنا . بيد أنه قد تحدث أحياناً أمور مفجعة ومعالم صادقة معاً فى نفس الوقت أو فى فترات متقاربة ، فيهتز العقل حيرة وارتياباً فى تفسيرها ، ويتساءل ملتهباً فى شكوكه هل هى مصادفة ؟ لكن العقل لا يركن إلى اعتبار أن وجود الظواهر الكونية مسألة عشوائية ، أو مجرد صدفة ، أحدثت التتابع والتشابه فى تلك الوقائع ؛ فذلك فى تقديره إنما يعنى أننا نفقد القدرة على التحكم فى مسيرة حياتنا .

ومن المعلوم أنه ليس ثمة ما يحدث صدفة من منظور الفكر الدينى ، فالأمور والأحداث محكومة بالإرادة الإلهية من خلال السعى الإنسانى ، وفى المفهوم العلمى والرياضى هناك الأسباب والعوامل الفاعلة والمؤدية فى ترابطها إلى حدوث ما يحدث من وقائع أو صدمات، قد تكون بفعل الطبيعة أو بفعل التآمر. وتفسير الأحداث فى أى إطار مرجعى من تلك الإطارات ، يدخل فى السياق المنطقى ، ويجعله أكثر تحملاً وأقل رعباً ؛ خاصة إذا ما كان وقعه عنيفاً وشاملاً. ولعله فى فترات الاضطراب والهلع يسعى الناس إلى إيجاد ترابطات وعلاقات بين أشياء ليس بينها أى علاقة منطقية أو سببية على الإطلاق ، مفضلين ذلك – بوعى أو بلا وعى – على أن يتركوا هذا الحدث يمر على اعتبار أن مثل هذه الأمور قد تحدث عشوائياً ، ولا حيلة لنا إزاءها .

والواقع أن تصورنا لحدوث بعض الأمور لا يعنى بالضرورة أنها تحدث فعلاً ، فللعقل خداع كما للبصر خداع ، وفى الوقت ذاته .. فإن تصور حدوث أمر ما غير مسبوق على الإطلاق لا يعنى أنه لا يمكن البتة حدوثه فى المستقبل ، ففى عالم الاحتمالات ليس هناك سابع مستحيلات . وفى جميع الأحوال فإن الإنسان – كما يقال – كائن يبحث عن التنميط فى مدركاته العقلية ، وبخاصة فى فترات الأحداث غير المتوقعة : مرعبة كانت أو مبهجة . وفى هذا السعى للتنميط يسعى المخ إلى ملء الفراغات بين العوامل لاستكمال صورة النمط ، التى لا تتوافر لها سوى عدد محدود من المعلومات . وقد ينجم ذلك عن خداع بصرى أو عن نوع من البصيرة أو التخيل فى نسج المعلومات مع بعضها فى نموذج محدد المعالم ، وهذا ما تؤكده فى علم النفس نظرية المعرفة الكلية (الجشتالت) فى فهم بعض الظواهر والمدركات العقلية .

ويسوقنا إلى هذه ما يجرى من أحداث رهيبة غير متوقعة فى حياة الشعوب، وما يرتبط بها من استجابات وتفسيرات متنوعة ، تمتد من طرف العقلانية وتقدير العوامل الموضوعية إلى طرف التفسيرات الغيبية أو الأسطورية . ويعنينا هنا ما حدث من تفسيرات ارتبطت بالتآمر ، وما تضمنه سياق المصادفات الرقمية فى وقائع الهجوم على مركز التجارة الدولى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنجتون .

وفى مقالة لصحيفة نيويورك تايمز بعنوان (احتمالات ذلك) ٢٠٠٢/٨/١١ والتى اعتمدت عليها فى تحرير هذه السطور تشير الكاتبة (لزلى بلكن) إلى نوع من التفكير المرتبط بالعالم السحرى الأسطورى للأرقام Innumerology ، كما هو الحال فى مجال التنجيم Astrology فى علم الأفلاك . وقد استطاعت تلك الرؤية الرقمية إيجاد أنواع من التماثل والتتابع فى كثير من رموز ذلك الحدث الرهيب . ومن المعلوم أن للصدمات المروعة فى تاريخ البشر مظاهر متعددة فى تغييب العقل ، والبحث عن آليات أخرى من التفكير للخروج من نفق الصدمة وحالك ظلمته . ولمثل تلك الصور من التفكير الأسطورى مشاهد فى تاريخنا البعيد والقريب ، لا يتسع المجال لعرض بعضها هنا .

والفكر الأسطورى الذى طرحته تداعيات وقائع برجى مبنى التجارة الدولي، ومبنى البنتاجون وهى التى يشار إليها عادةً بتاريخ ٩-١١ على طريقة الكتابة الأمريكية للتاريخ ، حيث يسبق تاريخ الشهر تاريخ اليوم، وهى أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والتى حال عليها الحول منذ مأساتها .

والمفتاح الأسطورى لهذا التاريخ ، كما يوضح مقال التايمز ، هو اليوم الذى وقعت فيه الكارثة ، ويتجسـد فى مكنون مصادفات الرقم (١١) ويمكن تفسير ذلك من خلال عـدد من التكوينات الأسطورية للأرقام المكونة أو المرتبطة بالحدث . ومنها: جمع رقم الشـهر ٩ إلى آحاد رقم اليوم ١ ، وعشـراته ١ أيضاً فيكون الناتج ٩ + ١ + ١ = ١١ . وكذلك ما أثير حول رقم رحلة الطـائرة التى بدأت بالهجوم على البرجين وهى الرحلة رقم (١١) ، وكان على متنهـا حين أقلعت ٩٢ راكباً ، إذًا (٢ + ٩) = ١١ . ثم إن يوم ١١ سبتمبر هو اليوم ٢٥٤ من أيام السنة ، وهذا العدد إذا ما جمع بالطريقة السابقة كان (٢ + ٤ + ٥) = ١١ .

أضف إلى ذلك أن هناك (١١) حرفاً فى كلمة (أفغانستان) بالحروف اللاتينية (Afghanistan) وكذلك يتألف كل من الأسماء التالية من ١١ حرفاً ، وهى مدينة نيويورك (New York City) ، واسم (البنتاجون The Pentagon) وكذلك اسم (جورج دبليو بوش George W. Bush) ، ثم إن منظر برجى التجارة العالمى حيث يظهران فى تقابلهما هو على شكل رقم (١١) .

وفى متابعة لنمط الأرقام المتصل الذى لا وجود له فى الواقع ، وإنما هو من صناعة العقل يدخل الفكر الأسطورى المتمثل فيما توحى به الأرقام من مؤامرة إلى أرقام رحلات الطائرات الثلاث التى قامت بذلك الهجوم، وهى تتابع تسلسل الأعداد بعد رقم (١١) . فرقم رحلة الطائرة التى تحطمت فوق أحد الحقول فى ولاية بنسلفانيا هو ٩٣ ، أى (٣ + ٩= ١٢) والطائرة الثانية التى اصطدمت بالبرجين كانت رحلة رقم ١٧٥ أى (٥ + ٧ +١ = ١٣) ، والطائرة الثالثة التى اتجهت نحو البنتاجون رقمها ٧٧ أى (٧ + ٧ = ١٤) أى أن أركان العملية التآمرية كانت متجسدة فى رقم ١١ ، وأن الطائرات المنفذة اتخذت الأرقام التالية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

ويتساءل المرء بعد قراءة هـــذه التكوينات الرقمية عن مدى صنع الإنســـان وتوليفاته ؛ من أجل أن يتفهم نوع الأسرار فى المصادفة والمشابهة والتنميط فى صور بعض الأحداث المفاجئة . ويبدو أن البشر فى كل مكان يتحركون فى تفكيرهم على متصل ممتد من العقلانية الصارمة فى أحد طرفيها إلى لاعقلانية (خرافية أسطورية) على الطرف الآخر ، فى ضوء ما يقرءوه فى الأحداث من تصورات ومصادفات وأنماط من صنع إدراكهم أو خيالهم . وقد يترتب على تلك القراءة وما بها من أنماط أن يتم تغييب العقل ، أو اعتقاله ، أو كبحه، أو إجهاضه ، أو تزييفه ، أو اغتصابه . ولسوف يتساءل المرء كذلك هل ستظل هذه الظواهر والأفعال جزءاً لا يتجزأ من توظيف الفكر البشرى، مهما ارتفع مستوى الوعى والتفكير العلمى والنظرة الموضوعية والتقدم المادى والتكنولوجى ، أم أن الرقى الحقيقى للحضارة الإنسانية لا يتم إلا من خلال القضاء

على مصادر الخوف والقهر والإفقار المادى والثقافى ، وتوفير الظروف لتحرير طاقات الإنسان ليمارس الحرية والمسئولية فى صناعة حاضره ومستقبله .

ومع ذلك النمط من التفسير فى صوره الأسطورية أو الغيبية أو السحرية ، فإن ذلك لم يحل دون ما أدى إليه حادث ١١ سبتمبر من تغيير فى صورة العالم وفى تصورات مستقبله ، وفى السياسات الأمريكية فى تداعياتها السريعة ، وفى موقف بقية العالم منها . وهناك تفسيرات سياسية فجة وبعضها عميق فى التعرف على الدوافع الكامنة لهذا الاعتداء الإرهابى المريع ، الذى لم يخطر على بال أحد . ومنها ما بدأ فى اصطناع سياسة محاربة الإرهاب بكل الطرق ، حيث إن " أعداءنا يكرهون حرياتنا " على حد تعبير الرئيس بوش . وما يزال الجدل محتدماً فى الأوساط الأمريكية حول آفاق الحرب ضد الإرهاب ومداها ، وبخاصة حول مهاجمة العراق لتهديده المصالح الأمريكية كما يزعم فريق من صناع السياسة الأمريكية فى حرب وقائية استباقاً لإمكانية امتلاك بعض الدول الصعلوكة Rogue ، أو الجماعات المتمردة تكنولوجيات الدمار الشامل .

ويرى نعوم نشومسكى الناقد والأستاذ بمعهد (MIT) أنه قد اتضح تماماً بعد أحداث ١١ سبتمبر ما كان منتظراً قبلها من أنه (مع وجود التكنولوجيات الحديثة سيفقد الأثرياء والأقوياء احتكارهم شبه التام لوسائل العنف ، ويمكن أن يتوقعوا معاناة من فظائع على التراب الوطني) .

إن تداعيات ونتائج أحداث سبتمبر عديدة ومتناثرة هنا وهناك ، ولن تحل جذور الدوافع التى أدت إليها الحرب ضد الإرهاب ، ومع ما أثارته تلك الأحداث من تنديد قاس فى كل أنحاء العالم ، فإن وسائل مواجهة أسبابها لم تحظ حتى الآن بالحصول على الشرعية الدولية لتوجهات السياسة الأمريكية ، وقد تجلى ذلك فى عدم موافقة الدول الأوروبية لتلك السياسة وبخاصة على تفرد الولايات المتحدة بالقرار فى الهيمنة على مصائر العالم واستخدامها للقوة العسكرية، بصرف النظر عن القانون الدولى أو الإرادة العالمية ممثلة فى الأمم المتحدة .

(٥) تدهور المؤسسات التعليمية والثقافية خلال غزو العراق

فى الفترة من ٢٢-٣٠ يونيو ٢٠٠٣ تغامر جماعة من المؤرخين المعنيين بدراسة الشرق الأوسط (وتشير لهم باسم الفريق العلمي) بالارتحال إلى بغداد لتكشف مصير المؤسسات التعليمية والثقافية بعد الغزو الأمريكي، ولتعرف العلاقة بين سلطات الاحتلال والجماعة الأكاديمية والثقافية العراقية. وتألفت تلك الجماعة من باحثة أمريكية من أصل أردنى تقيم حالياً فى عمان ، وأستاذ كندى فى جامعة تورنتو، ومن أستاذ فرنسى من جامعة بروفنس ، ومن أستاذ أمريكى بكلية موين فى سيراكيوز والمدير المشارك لمركز السلام والدراسات العالمية، وهو فرع من مركز دراسات الشرق الأوسط فى جامعة هارفارد .

وقد أصدر هذا الفريق العلمى تقريره فى ١٥ يوليو ٢٠٠٣ بعنوان (فتح الأبواب : الحياة الثقافية والأوضاع الأكاديمية فى بغداد ما بعد الحرب) ، وهو تقرير ضخم حافل بالتفاصيل . وقد حرصت هنا على تلخيصه قدر المستطاع ، اقتناعاً منى بأن له قيمته المعلوماتية للمعنيين بالتعليم والثقافة فى مختلف أقطارنا العربية ، و أهمية دورهم فى مد يد العون ؛ مما يمكن العراق من التحرر والنهوض الثقافى الوطني ، ووافياً من الهجمة الثقافية الأمريكية .

وقد أكد الفريق العلمى منذ بداية التقرير ما تبين له من أنَّ أى معالجة أو نقاش حول النشاط الثقافى أو الحرية الأكاديمية أو بنية التعليم ومناهجه، لابد لفهمها من أن ترتكز فى تعبيره من (حقيقة أن البلاد خاضعة لمصالح الاحتلال العسكرى ويقوم على أرضها (١٦٨) ألف من القوات الأجنبية، وتفتقد الأمن والخدمات بصورة عامة فى ربوعها ، وأن جوًّا مضطرباً قد يخلق سياقاً سياسيًّا مؤثراً فى التراب الثقافى والجامعات والمكتبات ومراكز البحث فى العراق) وهو فى جميع الأحوال الراهنة مرتبطة فى المقام

الأول، كما يصرح التقرير بالمصالح الأيدلوجية للسياسة الخارجية والتوجيهات الداخلية الأمريكية والتى يعتبرها العالم الخارجي، كما يراها العراقيون، استعماراً أجنبياً) .

قرأت هذا التقرير وأذهلتنى الأجواء التى أثارها، حين يصف من خلال مقابلاته وزياراته للمؤسسات والعاملين فيها من الأساتذة ، ما جرى لها ولهم وبخاصة منذ منتصف الثمانينيات، ثم ما نجم عن الغزو الأمريكى ذاته من كوارث أحاطت بها وبهم. وأجدنى هنا مضطراً لأن أترك التقرير مؤقتا لأعبر عن خواطرى المثارة حين تذكرت بغداد الرشيد والمأمون، ثم حين سيطر عليها أتراك سامراء فى أخريات المجد العباسي. لقد سادها الضمور الهزال عمراناً ، وتواترت الفتن والقتل والفساد ، وأجهضت كل محاولات الفكر بعد أن تم قفل باب الاجتهاد الفقهى ، وانطفأت مشاعل الآداب والفنون ، وترجمات التلاقح الثقافى مع تراث الحضارات الأخرى ، وأقفلت دار الحكمة أبوابها على الخرافة والتصوف المتواكل ، إلا قليلاً من الشعاع الحضارى الخافت هنا وهناك .

وفى هذه الأوضاع اليائسة من أوضاع الخلافة العباسية سرعان ما يصل الزحف التترى إلى بغداد فيجتاحها عام ١٢٥٨م ، ويسفك الدماء ويدمر ويحرق ويعبث بكل مقومات التراث الحضارى من مكتبات وفنون وعلم وعلماء. وهكذا تصورت حال بغداد قبيل الغزو الأمريكى ، وما جرى لها أثنائه وبعده من قوات احتلالية وتوابع وجودها .

ففى عراق ما قبل الغزو، كان صدام حسين قد انفرد بالسلطة منذ منتصف السبعينيات ، حين بدأ عهده فى إعلان طاغوته بإعدام مجموعة من رفاقه فى محاكمة ارتجالية لم تتجاوز ساعة من الزمن. كذلك اصطفى عشيرته من أهل تكريت ليكونوا نواة حزب البعث الجديد إلى جانب من هرعوا ليدينوا له بالولاء التام والطاعة العمياء، وزج فى السجون ودفن فى المقابر كل من اشتم منه رائحة معارضة، ثم حشد الشباب والطلاب الجامعيين فى قواته المسلحة لمحاربة الجارة إيران ، تحت شعار حراسة البوابة الشرقية للوطن العربى من خطر النظام الإيرانى الذى وصفه بالمجوسي ، وكان ذلك بتشجيع ودعم من الولايات المتحدة وتمويل من دول الخليج ، ثم انقلب بعد ذلك إلى غزو الكويت وانتهت تلك المغامرة كما انتهت مغامرة إيران إلى الهزيمة النكراء والهدر لموارده والموارد العربية الأخرى . وتفاقمت بعدها إجراءاته القمعية قتلاً وسحلاً ،

وترويعاً لكل مواطن عراقي على يد كتائب حزب البعث، مما أسفرت عنـــه المقـــابر الجماعية التي كشفت أخيراً عن ضحاياها .

وفي هذا الجو الرهيب حاول أن يُجَمِّل صورته بدعم بعض المؤسسات الثقافيـــة والعلمية تمجيداً لتراث البعث وقائد الضرورة . وفي محاولة للالتفاف حول إبعاد الشيعة عن مقاليد الحكم وقيادات الدولة ، أصَّل نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنـــهما ، وأودع شجرة نسبه في مساجد النجف وكربلاء، وأغدق بسخاء علـــى مهرجانـــات المربد السنوية التي دعا إليها الشعراء من مختلف الأقطار العربيـــة ؛ ليـــشيدوا بأمجـــاده وعظمته وبقدرات درعه من قوات جيش المغاوير الأشاوس ... ولم تخـــل المنتـــديات الفكرية من الحديث عن مقولاته وخطبه ، كما لم يتوان المسرح والـــصحف اليوميـــة الثلاث والإذاعة والتليفـــزيون عن ترديد آيات الولاء والتعظيم والإجـــلال لكل كلمة أو حركة للقائد المظفر وحزبه .

ويظهر على مسرح الأحداث السياسية عدي وقصي يهيأن للخلافة، ويـــسيطران سيطرة تامة على قطاعي الشباب والرياضة والإعلام لتطبق الدعاية الـــشاملة والتعبئـــة الخانقة على عقول الناس ومشاعرهم بصورة لا تفسح مجالاً، إلا ويتردد فيه تأليه القائد أملهم والزعيم الأوحد .

هذا الفيض من المؤسسات الإعلامية والثقافية يسبح بحمده صباح مساء، وينـــشر ويمجد صفاته الفذة المتمثلة في (٩٩) سمة شامخة كذلك جرى تطهير الجامعات من كل أستاذ لا يشيد بالبعث والرئيس في محاضراته ، وقد اتسع مجال هذا التطهير بما جاوز ما تعرضت مثله الجامعات العراقية عام ١٩٦٨ إبان المد الشيوعي في حكم عبد الكـــريم قاسم. ويحتل الأساتذة البعثيون مواقع القيادة في رئاسة الجامعات وعمـــادة الكليـــات ورؤساء الأقسام،ويتم شغل تلك المناصب القيادية بالتعيين بعد أن كانت بالانتخـــاب حتى عام ١٩٧٩ . ويلوذ بالصمت من استطاع منهم يهاجر المئات ومن وجـــدوا إلى ذلك سبيلاً. وتستمتع القلة من الأساتذة من أعضاء الحـــزب بالـــسفر للمـــشاركة في المؤتمرات، وحتى هذه المكافأة قد توقفت إلى حد كبير بعد حرب الخليج الثانيـــة منـــذ التسعينيات ، نتيجة لما أحاق بالعراق من حصار اقتصادي ، كمـــا توقـــف تزويـــد المكتبات بأية مراجع أو مجلات علمية حديثة أجنبية أو عربية .

ولعل قصة (لؤى حسين) ابن أخ الرئيس ، الذى رسب فى إحدى المواد الدراسية فى كلية الهندسة بجامعة بغداد دليل دامغ على ما ساد الحياة الجامعية من إرهاب ورعب، إذ تولت عصبة من فتوات البعث القيام بضرب ذلك الأستاذ ضرباً مبرحاً أصابه بعاهة فى ساقه ، بل وحاولت اختطاف رئيس القسم الذى أنبأ بالخبر ، وانتهى به العقاب إلى عدم تجديد رئاسته لذلك القسم !!

ومما يستحق الإشارة فى مجال القضاء على كل نسمة من نسمات الحرية الأكاديمية فى الجامعات العراقية ، تلك الإجراءات الرقابية على موضوعات البحوث فى رسائل الماجستير والدكتوراه، حيث كان من الضرورى أن يتم الموافقة على اعتمادها من قبل أحد المكاتب فى رئاسة الحزب . ولم تخل المناهج الدراسية فى التعليم ما قبل الجامعى من التعبئة الطاغية لأمجاد العراق خلال مختلف العصور ، ولانطلاقتها نحو العزة والكرامة الوطنية التى يجسدها القائد البطل . وقد كان على طلاب المدارس أن يبدءوا دروسهم صباح كل يوم بنشيد يحيونه ويباركون جلائل أعماله . ولعل أعجب ما حدث من تذكير للطلاب بالانتماء والولاء للزعيم ما تم من استخدام حرفى (ص،ح) أول حرفين فى اسم صدام حسين ، بدلاً من الحرفين (س،ص) المصطلح عليها عادة فى كتب الرياضيات .

ومن المؤسسات التربوية التى أراد القائد فى منتصف التسعينيات أن يخلد بها ذكراه اقتطاع جزء من مبانى جامعة بغداد ليكمل به إنشاء (جامعة صدام) ، وليزودها بالأساتذة المتميزين من الجامعة الأم، وليجعل من جامعته منارة تعليمية لتخريج الصفوة من قيادات الدولة وأيديولوجيتها البعثية . ويتم القبول فيها من الحاصلين على أعلى الدرجات فى امتحان الثانوية العامة ، مع إجراء مقابلات للمتقدمين للالتحاق بها. وقد جرى الاهتمام بتطوير مناهجها فى كليات الحقوق والعلوم والهندسة والطب ، والاحتفاظ بكثافة قليلة للفصول بحيث يكون فيها أدنى معدل من الطلاب لكل عضو من أعضاء هيئة التدريس ، والحاصل أنه لم يزد عدد طلابها منذ إنشائها عن (٢٥٠٠) طالب وطالبة، هذا فى الوقت الذى تنامت أعداد الطلاب فى الجامعات الأخرى دون حدود .

ولكى يترك مآثره على التعليم الدينى، أنشأ فى منتصف الثمانينيات (جامعة صدام الإسلامية) بمساعدة الكويت فى أخريات أيام حربه البائسة مع إيران لتدريس الفقه

السني، ثم اتبعها فى أوائل التسعينيات (بجامعة الفقيه) لتدريس الفقه الشيعي. ولعله أراد بذلك إرضاء الشيعة دون أن يدرى بأن ذلك قد يؤدى فى نهاية المطـــاف إلى مخـــاطر خلخلة التماسك الثقافى ، بوجود أربعة أنواع من التعلم والثقافة : نظام مدنى عـــام ، ومدنى متميز ، وسني ، وشيعى .

تلك هى صورة عراق صدام وأيديولوجية البعث قبيل الغزو الأمريكي/البريطـــانى التتري، وفيها من أجواء البؤس الاقتصادى الذى فرضه الحصار الدولى ، ومن كوابيس الكبت والقهر الثقافى الفكرى مما نجد له مشابه كثيرة ، وإن تنوعت أشكالها وصورها مع أحوال بغداد فى عهد الخليفة العباسى المعتصم وجنوده الأتراك وغيرهم من المرتزقة، قبل أن يزحف هولاكو ليحدث الدمار والفوضى ولتتمـــزق الحـــضارة الإســـلامية ، وتذوب معالمها وقواها فى الخلافات المذهبية وصراعات السلطة والحكم .

ونعود مرة أخرى إلى تقرير الفريق العلمى الذى وفد إلى بغداد ليستقصى أحوال مؤسساتها التعليمية والثقافية ، بعد الغزو التترى الجديد للحضارة الرأسمالية الحديثة . وسوف نلخص فى مقالنا التالى ما أحدثته قوى الاحتلال العسكري، وما تزال تحدثه وتشيعه من تدمير وحرق وقتل وإرهاب وتصفيات كما فعل هولاكو -لما خلفه قائد الضرورة من مؤسسات متهالكة . تغدو سياستها فى ذلك مرهونة بما تعلنه وتضمره مصالح الولايات المتحدة الخارجية والداخلية ، متذرعة باسم محاربة الإرهاب ، ثم لتؤكد من خلال ذلك قدرتها كقطب القوة الأوحد فى عالم اليوم ، وبصرف النظر عن مصداقية مزاعمها فى تبرير هذا الغزو، مما كشفت عنه الوقائع والوثائق من زيف وضلال وتضليل ، ومما أصبح مضغة ومجالاً للتندر فى أفواه الشعوب ، بل ولدى قطاعات عريضة من الشعب الأمريكى ذاته ، وقد بدأت تتوالى لديها علامات التساؤل عن الأسباب الحقيقية الدافعة لهذه الحرب . وإذا كانت حروب صدام وطغيانه وجبروته مستمدة من جنون العظمة الذى ركبه ، فإن أحد الكتاب الأمريكيين يرى أن ج. دبليو بوش قد غامر بهذه الحرب زاعماً أنها نزهة عسكرية، لا بدافع الهيمنة وضمان المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط فحسب ، بل ينضاف إلى ذلك اعتقاده بأن ضرورة الحرب جاءت استجابة لرسالة الرب فى محاربة الإرهاب وتأديب مواطن الشر ، هذا فضلاً عن أنّه يريد أن يضع بصماته خالدة فى سجل التاريخ العالمى .

الغزو الأمريكى وأحوال المؤسسات :

برصد لأحوال المؤسسات التعليمية والثقافية نتيجة للغزو الأمريكى / البريطانى للعراق. ويؤكد تقرير هذا الفريق بأن الحرب هى الحرب، تدمير وخراب كما هو متوقع، وبخاصة بعد تلك الغـــارات الجوية المكثفة والمتلاحقة التى انهالت فيها أحدث الطائرات الحربية الأمريكية بوابل من صـــواريخها وقنابلها العنقودية ، وقامت فيها دباباتها باجتياح كاسح للمبانى والعمـــران، لم تميز فيه جميع الأسلحة الغازية بين الأهداف العسكرية والمنشآت المدنية ومؤسسات الخدمات والمرافق، وبخاصة على مدينة بغداد وضواحيها.

وقد شهد ذلك الفريق الذى اقتصر فى استطلاعه على المؤسسات القائمة فى مدينة بغداد كثيراً من صعوبات العمل، وراعه ما حدث فى المدينة من تدمير وحفر عميقـــة بفعل ما انتشر فيها من آلاف القنابل الثقيلة التى تفجرت ، والتى لم تنفجر بعد. هـــذا فضلاً عن الظلام المخيم نتيجة انقطاع الكهرباء ، مما جعل حركة الفريق محدودة تقتصر على الفترة من الثامنة صباحاً حتى السابعة مساءً حيث يلجأ الجميع إلى منازلهم بدواعى الأمن ومخاطره . وفى النهار والليل تتوقف أجهزة التبريد مما ضاعف مـــن صـــعوبات العمل فى درجة حرارة تتراوح ما بين ٤٥-٥٠ درجة مئوية .

وإذا كان الفريق لم يجد من قوات الاحتلال وموظفيه ما توقعه من تعـــاون بـــل أظهروا كثيراً من التحفظ ، إلا أنَّه استطاع أن يستعين ويلتقى بعديـــد مـــن أســـاتذة الجامعات العراقية، وجماعات من المثقفين والفنانين، وببعض رجال السلك الدبلوماسى الأجنبي ، وممثلى برنامج الأمم المتحدة واليونسكو. ودار الحديث خلال تلك اللقاءات عفويًّا مسترسلاً باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية منتقلاً من موضوع إلى موضوع. فى المكاتب وفى المنازل أو وسط الحرائق وأكوام الرماد . وقد أبدى معظم الأســـاتذة آراءهم فى صراحة ودون تحفظ ، ســـواء فى نقد الأوضاع خلال حكم النظام البعثـــى أو تحت ظروف الاحتلال .

أما عن الوضع الأمنى العام.. فقد ظل فى حالة من الاضطرابات والفوضى، وكان من أبشع صوره فى أيامه الأولى ما جرى للمتحف الوطنى من انتهاك وسرقات وإفساد وتشويه لمختلف مقتنياته ومرافقه ، وهو المتحف الذى احتضن آثار حـــضارتى بابـــل

وآشور وتراث حامورابى وآشور بانيبال ونبوخد نصر، ولوحات القلم المـــسمارى ، وغيرها من تماثيل حضارة بابل التى شهدت حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الـــدنيا السبع ، وتماثيل آشور الضخمة المهيبة فضلاً عن الآثار الإسلامية فى مختلف عصورها . ومع غياب السلطة وشيوع الفوضى تألفت عصابات اللصوص ممن أطلق عليهم اســـم (على بابا) ، والتى قامت بالسطو على المؤسسات الحكومية تنهب كل ما اســـتطاعت حمله من الأجهزة الكهربائية والتليفونات والمحولات الكهربائية والحاســـبات، وأثـــاث المكاتب. ولعل اسم (على بابا) ، الذى كان يسرق من اللصوص الأربعين فى حكايات ألف ليلة وليلة، جاء مبرراً ومماثلاً ومتماشياً فى إطلاقه على اعتبار أن أولئـــك الـــذين كانوا يقومون بالسطو إنما كانوا يسرقون من (الحرامية) فى المؤسسات الحكومية . لكن جرائم السرقة والسطو قد امتدت فى بعض الحالات إلى المنازل والمؤسسات التجارية ، بل وتمادت فى الاعتداء على الآمنين . ومن غرائب حالات السطو ما قام به البعض من فك الطوب الأثرى من جدران بعض المبانى التاريخية العثمانية ، ومن مبنى وزارة الدفاع الذى يرجع معماره إلى العشرينيات أثناء فترة الانتداب البريطانى .

وفى حالة المؤسسات التعليمية والجامعات والمكتبات ومراكز البحـــوث ، يـــشير التقرير إلى أنها تعرضت بدرجات متفاوتة للإتلاف والتخريب وللحرائق و لسرقة مـــا حلا للصوص من الحاسبات والكراسى والطاولات والسبورات والشبابيك والأبواب ، وكل ماله قيمة من معدات الحياة التعليمية والثقافية اليومية فى تلك المؤسسات ، حـــتى أصبح بعضها قاعاً صفصفاً كما يقال . ولم يقتصر الأمر على تلك السرقات ، بل امتد إلى الوثائق العثمانية والمخطوطات التاريخية والكتب ، وإلى سجلات الطلاب ومختلف الأوراق فى الأرشيف الإدارى لتلك المؤسسات. وإلى جانب التشويه والإتلاف الشنيع لبنية المؤسسات وأجهزتها ومرافقها ومحتوياتها ، الذى نجم عن فراغ السلطة المركزية فى بغداد ، ينضاف ما عانته تلك المؤسسات من ضمور وهزال وفساد فى الإدارة نتيجـــة للثقافة الأيديولوجية البعثية ، والذى بلغ ذروته منذ أوائل التسعينيات ؛ نتيجة الأزمات المالية وسياسة التقشف التى أملتها ضغوط الحصار الاقتصادى وهبوط أسعار الـــنفط . كما يشير التقرير إلى تجميد أى نمو أو تطوير فى المؤسسات التعليمية والثقافية، كمـــا

توقفت مكتباتها عن التغذية فى رصيدها والتجديد منذ أوائل التسعينيات. ويجيء الاحتلال وما صحبه من فوضى ليدق أخر مسمار فى نعش أى جهد ملحوظ للتطوير مقارنة بما عرفت به بغداد قبلاً بتميز جامعاتها ومراكزها البحثية ، حيث كانت تعتبر من أكثر المؤسسات نمواً وحيوية فى العالم العربى . ويتابع التقرير تفاصيل أحوال الجامعات فى بغداد واصفاً ما آلت إليه من دمار أثناء الحرب أو سطو وإتلاف من جماعات (على بابا) ، وسنكتفى هنا بإيراد أهم ما أصاب تلك الجامعات من شلل فى حركتها حسبما ورد فى التقرير .

جامعة بغداد .. أقدم الجامعات حيث تأسست عام ١٩٥٧ ، تعرضت لبعض الدمار المادى أثناء الحرب، وكانت فريسة ومجالاً خصباً للسطو والسرقات، كما اشتعلت فيها حرائق ، ما يزال دخانها يغطى بعض جدران مرافقها سواداً ورائحة ... بيد أن أكثر الخراب قد أصاب كلية الفنون الجميلة التى يقدر ما سرق منها بحوالى (١٠٠٠) أسطوانة موسيقية ، (٥٠٠٠) شريط تسجيلي، وعشرات من أجهزة التسجيل ، (٣٠) من آلات البيانو ، ومئات من كتب الفنون والموسيقى .

وبالنسبة لجامعة المستنصرية التى تأسست عام ١٩٦٠ كجامعة خاصة ، ثم تحولت إلى جامعة حكومية فى السبعينيات مع بداية الحكم الصدامي، فإن مكتبة الجامعة قد دمرت تماماً . ويبدو أن هذه الجامعة كانت أكثر تعبئة وتعبئة مضادة فى جوها السياسى من جامعة بغداد، حتى أنه بمجرد أن سقطت بغداد فى يد الغزاة انفجر العنف السياسى بين الطلاب من مختلف الألوان الأيديولوجية، مما بلغ ذروته المأسوية فى مقتل أحد عمداء الكليات. وقد انعكست آيات التنفيس السياسى الذى كان مخنوقاً حين انطلق إلى ظهور كتابات على حوائط الجامعة ، يدعو بعضها إلى اعتبار (حزب البعث حزباً غير إسلامي) وبعضها يؤكد (الإسلام كمرجعية شريفة) ، وكتابات أخرى تتهم الكلية بأنها (بعثية) ، وفى مقابلها (نعم للحرية، نعم للازدهار، نعم للتقدم العلمي) ، ولعل أهم تلك الكتابات ما يدعو إلى (تكوين روابط طلابية جديدة) ، وإلى (الحث على مقاومة الاحتلال الأمريكي) .

أما جامعة صدام التى غير أساتذتها تسميتها لتصبح **جامعة الرافدين** ، فهى الجامعة التى أنشأها صدام حسين عام ١٩٩٥ ؛ لتصبح الموطن العلمى فى توليد النخبة مـــن الكفـــاءات العالية المتميزة لخدمة مختلف القطاعات فى عراق المستقبل، وعلى هدى مـــن الاســـتراتيجية البعثية وقيادة الزعيم. لذا حظيت بمزيد من الاهتمام والتمويل مقارنة بالجامعات الأخرى كما أشرنا فى مقالنا السابق . ولم يشر التقرير إلى أى من الإضرار التى حدثت لها من جراء الحرب ، أو عمليات السلب والنهب التى أحاقت بالجامعات الأخرى.

ثم يستعرض التقرير أحوال المؤسسات العلمية والبحثية، بادئاً بمؤســـسة **بيـــت الحكمة** ، التى أحياها النظام البعثى عام ١٩٩٥ تيمناً بمؤسسها وبشهرتها أيام الخليفـــة العباسى المأمون الذى أنشأها عام ٨٣٢م لتكون مركزاً للترجمة من اللغـــات اليونانيـــة والفارسية . لكن صورتها الجديدة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالسلطة البعثية واحتياجاتهـــا البحثية ؛ لذا كانت إدارتها تابعة لرئاسة الجمهورية فحظيت بكـــثير مـــن الاهتمـــام والتمويل ، لكنها تحولت بالتبعية بعد الغزو إلى المشرف على الشئون الثقافيـــة وهـــو دبلوماسى إيطالى . وقد اشتهرت فيما قبل الاحتلال بكونها مؤســـسة للنخبـــة مـــن الباحثين، ويقال إنهم قاموا بإعداد كثير من رسائل الدكتوراه وغيرها مـــن الأعمـــال البحثية التى نسبت زوراً إلى أفراد عائلة صدام كمؤلفين لها . ومع الفوضى التى نجمت عن الغزو تعرضت مكتبة بيت الحكمة ومتحفها لكثير من النهب والـــسلب للكتـــب والوثائق والتحف الأثرية التى كانت فى المتحف الملحق بها .

كذلك تعرضت **مكتبة المجمع العلمى العراقى** للنهب ، وإن كان بدرجة أقل من بيت الحكمة، لكنها فقدت عدداً كبيراً من ذخائرها الوثائقية وكتبها النفيسة ، وقـــد كانت كما هو شأن بيت الحكمة، تابعة لرئاسة الجمهورية ضـــماناً للـــسيطرة علـــى أنشطتها ومؤتمراتها وحلقاتها الدراسية، ثم تحولت تبعيتها بعـــد الغـــزو إلى المـــشرف الأمريكى على الشـــئون التعليمية ، الذى لم يقم حتى مجيء الفريق العـــلمى بزيارتهـــا أو تعرف أحوالها وحاجاتها .

كذلك قامت اللجنة بزيارة **المكتبة الوطنية ودار الوثائق** فى شارع الرشيد بمبناها الضخم وأجنحتها المتعددة ، ولم تسلم من الهجوم والسطو الذى جرى لها مرتين ، أولاهما

عند دخول الغزاة إلى قلب بغداد حيث تمت سرقة كل الأجهزة والمعدات كآلات النسخ والحاسبات وآلات التكبير ومحتويات المكاتب . وفى الهجوم الثانى اشتعلت النار فى بعض الأجنحة حيث لا يرى الزائر فيها إلا أكوام الرماد المتبقية من احتراق الكتب . ويرى بعض المهندسين أن استقرار المبنى كله قد تعرض لخطر الاهتزاز من شدة حرارة الحرائق ، التى غطت سحب دخانها الجدران بالسواد، مما أتاح الفرصة للكتابات على الحوائط، ومن أمثلتها (الموت لصدام الكافر) بإمضاء الحوزة . والحاصل أن الجماعة الشيعية قد عينت حراساً للمكتبة، يرتدون زياً خاصاً أسود نظراً لأن موظفيها الأصليين لم يكونوا عابئين بما يحدث ؛ لذا تطوعت الحوزة لأداء مهمة الحراسة كواجب دينى ووطنى .

لقد كان الخراب والدمار الذى حدث للمكتبة الوطنية مريعاً ، لم يتوقع الفريق العلمى أن يكون بهذه الصورة، هـــذا إلى جانب ما قيل له من نقل مئات المخطوطات والوثائق والكتب إلى أماكن أخرى . كما زعم بعض العاملين فى المكتبة بأنهم قد أخفوا كثيراً من رصيدها فى أماكن سرية لم يفصحوا عنها. وفى ضوء ما شاهده الفريق من دمار بالمكتبة الوطنية، يرى أن بناء مقر جديد للمكتبة أصبح ضرورة لا مفر منها .

تلك أهم المؤسسات التعليمية والثقافية التى قام الفريق العلمى بزيارتها ورصد موجز أحوالها بعد ما جرى لها من تدمير وحرائق وسرقات أثناء الغزو وبعده حتى أواخر شهر يونيو من فترة بداية الاحتلال الأمريكى لأرض العراق .

توجهات السياسة التعليمية والثقافية للاحتلال :

استعرضنا فى مقالنا الثانى تلخيصًا لما أصاب المؤسسات التعليمية والثقافية فى بغداد من جراء الغزو الأمريكى ، وما صحبه من فوضى نتيجة لعدم توفر أبسط مقومات الأمن والنظام ، التى تجاوزت قدرات جيش الاحتلال. واعتمدنا فى ذلك على ما ورد فى تقرير الفريق العلمى من المؤرخين من الولايات المتحدة وكندا وفرنسا ، والذى وفد إلى بغداد للإطلاع على أحوال تلك المؤسسات . وقد فصـــل هذا التقرير ما لحق بها من دمار فى بنيتها الأساسية نتيجة لضرب بغداد وضواحيها بالصواريخ والقنابل، واجتياح الدبابات ، وما تبع سقوطها من انتشار عصابات النهب والسلب لمعظم ما استطاعت أن تصل إليه من آثار المتحف الوطني، ومن المكتبة الوطنية ، ومكتبات الجامعات وأجهزتها ومعداتها وأثاثها، فضلاً عن بيت الحكمة والمجمع العلمى العراقى .

ويشير التقرير إلى الجمود الذى رآن على أنشطة تلك المؤسسات التعليمية والثقافية ؛ نتيجة لقصور الموارد منذ التسعينيات على أثر الحصار الاقتصادى ونقص عائدات النقط . وجاء الغزو وانعدام الأمن وانقطاع الكهرباء، وسرقة رأس مال الثقافى من كتب ووثائق وسجلات ليوقف معظم ما تبقى لها من أنشطة وبرامج . وأدى تخلخل الأمن إلى عدم انتظام العاملين فيها، وبخاصة من العنصر النسائى الذى اضطر إلى البقاء فى بيوته، كما شهدت بعض الجامعات تصادمات عنيفة بين الطلاب ، رغم انتشار قوات الجيش فى مداخل الجامعات وفى طرقاتها .

أضف إلى تلك العوامل التى حدَّت بل وأوقفت فى كثير من الحالات أى نشاط للمؤسسات التعليمية والثقافية، خضوعها لمشرفين أجانب ممن عينهم المدير التنفيذى الرئيسى لإدارة عملية تعمير العراق (**بول بريمر**) ، مما سلب صلاحيات القرار والعمل من العراقيين فى مؤسساتهم . ويعلق التقرير على ما يعانيه العراقيون من إحباط ؛ نتيجة لفشل سلطات الاحتلال فى إقرار النظام وتوفير الاستقرار والاحتياجات اليومية للحياة من غذاء وكهرباء وماء وهاتف وبنـــزين .

وقد أدى ذلك إلى ظهور بدايات تذمر وحركات مقاومة راديكالية للوجود الأمريكى ولجهوده فى الأعمار والتطوير التى تتحرك ببطء السلحفاة . وبذلك فقدت إدارة الاحتلال ما لقيته من دعم وترحاب فى الأيام الأولى مع سقوط النظام الصدامي. ويشير التقرير كذلك إلى ما يبدو من أن إدارة الاحتلال غير معنية بجدية العراقيين ؛ حيث لا يوجد نظام أو آليات مؤسسية تتيح لمختلف شرائحهم الاجتماعية والثقافية التواصل الفعال مع المسئولين فى تلك الإدارة . ثم أن اختيار إدارة الاحتلال للقصر الجمهورى مقر الرئاسة فى عهد صدام حسين مركزًا لعملياتها ، يحمل من طياته على الأقل رسائل مضطربة ومختلطة للشعب العراقى . ويضاف إلى آيات التباعد بين الإدارة والأهالى ما يلحظه العراقى ويثير حفيظته من مسيرات القوات العسكرية تجمعاتها فى الشوارع وفى حراســـة الاجتماعات وفى نقاط التفتيش متشحة بدروعها وبنادقها ، مما يلقى بظلاله من مثول القوة العسكرية فى مداخل المؤسسات وأمام الجمهور حيثما سار فى ساحات بغداد .

ومن العوامل الهامة التى أدت إلى الجمود والاضطراب فى نشاط المؤسسات التعليمية والثقافية ما اصطنعته إدارة الاحتلال من إجراءات لتطهير تلك المؤسسات من أعضاء حزب البحث أو الموالين للنظام القديم De- Baathificatian Policy وقد تمت محاولات هذا التطهير على مرحلتين، أولاها بناء على سلسلة من الأوامر الرسمية التى أصدرها رئيس إدارة الاحتلال (بول بريمر) ، وكان مما ينطبق على المؤسسات التعليمية والثقافية الأمر رقم (١) بتاريخ ١٧ يونيو ٢٠٠٣ ، والمنشور فى الوقائع العراقية، حيث تقرر مادته الثانية ما نصه :

إن كل من يتمتعون بكامل عضوية حزب البعث ممن يشغلون مواقع القيادات الإقليمى ... وعضوية الفروع ... وعضوية الأقسام ... وعضوية الجماعة يتقرر بهذا الأمر إبعادهم من مواقعهم ، وحرمانهم فى المستقبل من العمل فى القطاع العام .

ويورد التقرير ما انطبق عليه هذا الأمر من المواقع التى شملت الغالبية العظمى من القيادات الجامعية والأساتذة البعثيين، بدءًا من رئيس جامعة بغداد ومدير بيت الحكمة، والذى يقدر أن حوالى ٧٥% من موظفيه قد تم عزلهم . وانطبق أمر العزل كذلك على جميع العمداء ورؤساء الأقسام فى الكليات الجامعية ممن كان يتم تعيينهم على أساس حزبى فى النظام القديم ، وبالنسبة لرؤساء الجامعات الجدد كان يتم اختيار المرشح الجديد من قبل المشرف الأمريكى على شئون التعليم ، وتجرى عملية انتخابية شكلية تتم فى احتفالية فجة توحى بأنها عملية انتخابية حقيقية .

بيد أن الالتزام الكامل بأوامر تطهير القيادات العليا فى المؤسسات بصورة عامة لم يكن متسقًا أو مطبقًا بصورة مطلقة ، حيث احتفظ (بريمر) لنفسه بحق الإعفاء من إجراءات التطهير على بعض القيادات . ومن هذا القبيل رئيس جامعة المستنصرية ومدير المتحف الوطنى ، ممن رأى أهمية بقائهم فى مناصبهم لما يمكن الإفادة من شخصياتهم المرموقة فى مساعدة الإدارة الأمريكية على إقرار النظام فى مؤسساتهم . ثم إن عددًا كبيرًا من المواقع الإدارية الوسطى والموظفين ، الذين استطاعوا بسلوكهم الانتهازى الاستفادة من النظام القديم تمكن كذلك من الإفلات من تطبيق الأوامر الجديدة عليهم دون أن يلتفت إليهم أحد . أضف إلى ذلك حدوث الإقصاء لبعض الأساتذة والموظفين بناء على

أى اتهامات مبهمة ومغرضة وفى أى وقت من الأوقات ، سواء انطبق عليهم القانون أم لم ينطبق . وهكذا اتسمت سياسة التطهير فى كثير من الحالات بإجراءات غير عادلة فى التطبيق ، وسوف تظل موضعًا للكراهية وعدم الثقة فى النظام الجديد ؛ مما أدى إلى مظاهرات الطلاب واحتجاجاتهم إزاء حالات إبعاد بعض أساتذتهم المتميزين .

وإذا كانت الأوامر الرسمية والمواقف العشوائية للإدارة الأمريكية قد شقت طريق المرحلة الأولى للتطهير البعثى ، فإن المرحلة الثانية قد قام بتنفيذها البعض من العراقيين أنفسهم سواء بطريقة رسمية أو غير رسمية ، فى صورة عمليات الانتخاب الشكلى ، أو الاحتجاج أو استعمال القوة أحيانًا لاستبعاد بعضهم بعضًا . وكانت تتم عمليات التهديد والاتهام بالبعثية فى كتابات على جدران الكليات مدفوعة بالإحن والثأرات الشخصية أو الرغبة فى الاقتراب والحظوة من النظام الجديد ؛ مما ينذر بتصاعد موجات من الثأر والثأر المضاد قد يصعب التحكم فيها .

وهكذا تعرضت المؤسسات التعليمية والثقافية فى تاريخ العراق لأربع موجات من تطهير قياداتها والعاملين بها خلال الأربعة عقود الماضية ، بدأت عام ١٩٥٨ بتطهير ثورة القوميين فى ذلك العام لأنصار الملكية ، وممن اتهموا بالخيانة أثناء الحكم الملكى والانتداب البريطانى . وفى عام ١٩٦٨ تأتى موجة تطهير الشيوعيين للقوميين والبعثيين أثناء حكم عبد الكريم قاسم . ومن منتصف السبعينيات يبدأ تطهير كل المعارضين من مختلف الأحزاب والتوجهات على يد صدام حسين وقيادات حزب البعث الجديد . واليوم يجرى تطهير تلك المؤسسات من أعضاء حزب البعث وأنصاره على يد سلطات الاحتلال الأمريكى .

ويرى التقرير حسب تعبيره أن الطريقة الستالينية التى تتبعها الإدارة فى الإقصاء استنادًا إلى معيار (البعثية) فيها اختزال شديد لمعايير اختيار القيادات فى النظام القديم ؛ إذ إن تلك المعايير كانت أكثر تعقيداً حيث ارتبطت فى كثير من الحالات بالعلاقات العشائرية والتكريتية بوجه خاص أكثر من مجرد عضويتها البعثية . ونظرًا لكل مخاطر التطهير البعثى، يوصى التقرير بإيقاف عمليات الاستبعاد والتصفية حتى تستقر الأحوال نسبيًّا ، مع العمل على إنشاء (لجان الصدق والمصالحة) على نمط ما جرى فى جنوب إفريقية ، وأن تتم معالجة موضوع الولاء والنظام على أساس القيم والمعايير الملائمة

لاستقرار الأوضاع العراقية، وفى إطار التحقيقات والإجراءات القانونية ؛ مما يجعل لها مصداقية العدالة والترحيب لدى العراقيين .

وبالنسبة لعلاقة مستقبل الجامعات بالدكتور (إدرمان) مستشار التعليم والذى كان عضوًا فى وزارة الخارجية بواشنطون قبل مجيئه إلى العراق، لكن يبدو أنه لم ينل قدرًا من الإعداد والخبرة بشئون الشرق الأوسط من قبل ، كما أنه لا يعرف اللغة العربية. ويبدو كذلك -كما استشعر الفريق- أنه لا يحظى باحترام وتقدير الأكاديميين والمثقفين العراقيين. ورغم أن تسميه وظيفته بالمستشار لشئون التعليم العالى إلا أنه يمتلك صلاحية وزير التعليم العالى، مع أنه ليس لديه خبرة فى تخطيط وإدارة الجامعات. وهو صلف لا يعتد كثيرًا بآراء الأساتذة العراقيين ، ولكنه يعمل على تنفيذ خطة وضعت فى واشنطون قبل الغزو. ومحورها كما أورد التقرير العمل على أن تصبح الجامعات هيئات ذات استقلالية بما يعنى خصخصتها، وأن ينضم إلى مجالسها أعضاء من الخارج ، وأن تلغى وزارة التعليم العالى مما يفصل الجامعات عن بنية المجتمع والدولة سياسيا. هذا فضلاً عن مراقبة ورصد مجالات البحث فى الهندسة النووية والعلوم البيولوجية والكيميائية ، وهذا يعنى إنهاء عمليات نزع كل مصادر السلاح من العراق ، والحيلولة التامة فى المستقبل دون بيع خبراته فى إنتاج أسلحة الدمار الشامل فى تلك المجالات للجماعات الإرهابية ، وللحكومات المعادية للولايات المتحدة .

وإذ يدين التقرير العقلية التى ارتأت مثل هذه الإجراءات فى تصورها المستقبلى للجامعات العراقية .. يدعو الجامعات الأمريكية إلى عدم التورط فى قبول عقود ومشروعات من قبل هيئة المعونة الأمريكية أو غيرها للعمل على التحكم فى مقدرات الجامعات العراقية دون مشاركة العراقيين فى تقرير ونقد وتنفيذ تلك المشروعات .

ويأتى التقرير أخيراً إلى مؤسسة الصحافة ، وما جرى لها من تطوير بعد الغزو، مشيرًا فى هذا الصدد إلى أنها بدأت ما يقرب من (٧٥) صحيفة ومجلة ظهرت على الساحة العراقية فى بغداد عند زيارة الفريق، وهذا بعد أن كانت الدولة هى المسيطرة على إصدار ثلاث أو أربع صحف وعدد محدود جدًا من المجلات . ويرى التقرير أن هذا العدد من الصحف سوف يتناقص، بل إن كثيرًا منها قد اختفى فعلاً نظرًا لعدم

استطاعة سوق القراء استيعابه. ويبدو أن هذه الانطلاقة الصحفية جاءت كرد فعل لما ساد فترة النظام السابق فى التضييق والكبت على حرية التعبير ، والحوار واختلاف الرأى . وقد أطلقت الإدارة الأمريكية حرية إصدار الصحف، و لم تضع لها من الحدود والضوابط إلا ما قررتها الأوامر الرسمية، ومن أهمها : تحريم إثارة الفتنة، والحث على عودة النظام البعثى وأيديولوجيته ، والدعوى إلى الكراهيات العرقية والدينية .

كذلك يشير التقرير إلى التفاوت الكبير بين الصحف من حيث النوعية والتغطية الصحفية، كما يرتبط معظمها أما ببعض الجماعات الحزبية التقليدية كالشيوعيين أوالليبراليين أو الأحزاب الكردية ، ولعل أبرز الصحف الرائجة فى بغداد هى (الزمان والتآخى الصباح). ولندن هى المركز الرئيسى لإصدار (الزمان) الصحيفة الوحيدة بالألوان حيث يعد نصفها هناك، بينما يعد النصف الأخر فى بغداد، وبخاصة الصفحتين الأولى والأخيرة . وتعالج الزمان موضوعات ثقافية رفيعة تناسب اهتمامات النخبة، وتعنى بأخبار وصور الممثلين ونجوم الفن العربى والأجنبى . وهى صحيفة يدعى صاحبها بأن لها موقفاً محايدًا فيما يتعلق بمجريات السياسة الحزبية فى بغداد، ولكنها ، كما يرى التقرير ، تحتل موقعها فى يمين الوسط أما صحيفة (التآخي) فهى صحيفة متزنة جادة تأسست عام ١٩٦٠ واستمرت مسيرتها خلال فترة النظام السابق حتى اليوم ، ولها ارتباطات بالحزب الديمقراطى الكردى، وتشاركه فى موقعه على الإنترنت. وتعتبر صحيفة "الصباح" أكثر الصحف ارتباطا بالإدارة الأمريكية وتوجهاتها ، وأقلها صلة بأى من الأحزاب السياسية. كما يرى التقرير أن غلبة الجيل الأكبر من محررى الصحف قد جعلها تفتقر إلى نضج سياسى متجدد فى مناقشة أولويات حاجات التطوير فى العراق وبخاصة فى ضوء مستجدات التعمير والمتغيرات العالمية ، وتزدحم مقالاتها بقضايا القومية العربية والصراعات الدائرة بين فئات المهاجرين فى الخارج .

ويختتم التقرير رصده للأوضاع الثقافية بانتشار الكمبيوتر واستخدام الشبكة العالمية فى المعلومات والتواصل ، وبخاصة بين الشباب، كما يتجلى ذلك فى التنامى الأسى المتزايد لانتشار المقاهى الإلكترونية واتصالاتها بالأقمار الصناعية. ويؤكد ما لهذا الانتشار من تأثيرات بالغة فى مستقبل المعرفة والثقافة فى العراق، بعد أن كانت محرومة من كل تواصل مع العالم الخارجى .

أما بعـد . .

لقد جهدت فى تلخيص هذا التقرير الذى رصد أحوال المؤسسات التعليمية الثقافية بصورة موضوعية ملحوظة ، كما قدم توصيات معقولة لم أتعرض لها ، مبينًا كيف يمكن للسياسة الأمريكية أن تأخذ بعين الاعتبار والتقدير آراء العراقيين أنفسهم إذا ما أرادت أن تعمر العراق وتبنى مؤسساته الديمقراطية ومجتمعة المدنى . ويحذر فى توصياته من الاقتصار على المصالح الأمريكية فى سياساتها التعليمية والثقافية، مبينًا كيف يمكن أن تؤدى إلى مزيد من القلاقل والفوضى والمقاومة لجهود الاستقرار اللازمة لإعادة أكسجين الحياة – حسب تعبيره – إلى أرض العراق .

لما كانت الأجواء السياسة والعسكرية هى التى تشغل فى معظم الأحيان فكر القارئ العربى ، فقد رأيت أن معلومات هذا التقرير قد توفر قدراً ضروريًّا من المعرفة بالأوضاع التعليمية والعلمية الثقافية باعتبارها عنصرًا هامًّا فى تقرير العراق لمصيره ، واسترداد سيادته واستقلاله ، كذلك أأمل أن يكون هذا التقرير نموذجا حافزًا لما يمكن أن تقوم به الجماعة العلمية والثقافية العربية فى متابعة ما يجرى فى أحوال تلك المؤسسات، ساعية إلى تعرف تلك الأحوال على أرض الواقع . كذلك يمكنها حث الهيئات الدولية كمنظمة اليونسكو للقيام بمهمات علمية لدراسة الأوضاع وتقديم التوصيات ؛ حتى لا تترك الساحة العلمية والثقافية فى يد سلطات الاحتلال وحدها. ولعل هذه المقالات تحقق ما قصدت إليه من استثارة الفكر والسعى نحو فعل مجد ومؤثر فى تطوير أهم مؤسسات المعرفة والرأى والفعل نحو عراق متحرر من الاحتلال مستقل ديموقراطى ، يتولى مواطنوه صنع الحياة على أرضه بالكرامة والحرية .

لإعمار مؤسسات التعليم والثقافة فى العراق

تملكنى شعور غامر بالثناء والاعتزاز بنبأ المبادرة الذى ورد فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٥سبتمبر، ومضمون هذه المبادرة يتصل بما أصدره السيد الدكتور/ رئيس مجلس الوزراء بالعمل على تكوين بعثة مصرية يابانية ؛ لاستكشاف ما يمكن أن يقدم فى المجال الطبى من عون للمؤسسات والقوى البشرية المعنية ، للتخفيف من ويلات الحرب والحصار الاقتصادى الذى سبقها مما أدى إلى تردٍ مريع للأحوال الصحية لدى الشعب العراقى .

ولقد تم بالفعل وعلى التو تأليف ذلك الوفد من ممثلين للجانب المصرى برئاسة أ.د/ مديحة خطاب عميدة كلية الطب / جامعة القاهرة ، ورأس الجانب اليابانى السيد يوكيو أوكاموتو المستشار الخاص لرئيس وزراء اليابان. ووصلت البعثة إلى بغداد وقامت بمهمتها حول دراسة لأوضاع الحالية للمستشفيات ومراكز الإسعاف وتوافر الدواء .. إلى غير ذلك من عناصر المسح الطبي . كذلك تم تحديد خطة العمل ومستوليات كل عن الجانبين المصرى واليابانى فيما يمكن القيام به من إسهامات لرفع المعاناة الصحية عن الشعب العراقى .

ومن حيث الأولوية فى تنفيذ المشروعات التى تم الاتفاق عليها استقر الرأى على أن يتولى الجانب المصرى تدريب الأطباء العراقيين وفرق التمريض والفنيين بكل ما هو جديد ومتطور فى مجال الطب وفنونه وتكنولوجياته . ويقـــوم الجانب اليابانى بإعادة بنـــاء مستشفى الأطفـــال فى بغداد وتجهـــيزه بكافة المعـــدات الحدية وعلى أعلى المستويات الفنية.

ويدفعنى إنجاز هذه المبادرة التى تفضل بها رئيس مجلس الوزراء نحو التوجه إلى سيادته بالسعى مرة أخرى لإنجاز مبادرة مصرية إنسانية قومية ، تسهم فى إعمار المؤسسات التعليمية والثقافية التى أصابها الدمار والتخريب والنهب من أحداث الحرب والفوضى التى أعقبتها ، وبخاصة فى الجامعات والمكتبة الوطنية ودار الحكمة والمتحف الوطنى وغيرها . ولا شك فى أن النهج الذى اتبع فى تأليف البعثة الطبية وتحديد مهماتها سوف يكون هاديًا وملائمًا فى تكوين البعثة التعليمية الثقافية . وعلى سبيل الاقتراح يمكن أن تتألف من وفد مصرى ، وممثل للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وممثل للمنظمة الإسلامية التربية والثقافة والعلوم ، وممثل لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة.

وإذا كان كل مصرى يثمن ويعتز كل الاعتزاز بالمبادرة الصحية ، فإن تقديره واعتزازه سوف يتضاعف بدور مصر وقيادتها فى الإعمار البشرى والثقافى للعراق ، ولعله من الضرورى أن يتم التعاون فى أى مبادرة لإصلاح التعليم فى العراق مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والتعليم، والمنظمة الإسلامية للثقافة والتعليم، ومع اتحاد الجامعات العربية.